
الاستعمار
قديمًا وحديثًا
د. مالك رشوان
CYPRUS
LEBANON
ISRAEL
The Gulf

الاستعمار

قديماً وحديثاً

الدكتور

مالك محمد أحمد رشوان

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ

كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بأسيوط


مكــــتبة
أ.د/مالك
رشــــوان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فإن قارة أفريقيا تعانى من كثير من الأدواء التى استعصى شفاؤها وتتبدد معظم جهودها إما فى نزاع داخلى وحرب أهلية أو فى محاولة للتغلب على مشاكل الفقر والجوع أو التصدى لكثير من الأمراض الخطيرة التى توطنت فيها ولا يقف أمر تلك المعاناة عند قارة أفريقيا وإنما يتعداها إلى قارة آسيا التى تقترب فى معاناتها من قارتنا السوداء .

وتحفل القارتان بإمكانات ضخمة من حيث مواردهما البشرية أو منتجاتهما من المواد الخام الزراعية أو الصناعية ، وتكشف الإحصاءات عن امتلاكهما لأسباب الرفاهية ووسائل التقدم والرقى ومع ذلك فمعظم بلدانهما - وبخاصة البلدان الإسلامية - لم تزل تتخبط محاولة البحث عن مخرج مما يمكن أن نطلق عليه عنق الزجاجة حيث الأزمات المتتالية والمشاكل الداخلية .

فأين مكمن الداء ؟ وهل يصدق عليهما المثل القائل (على نفسها جنت براقش) أم أن هناك أيد أجنبية خفية قد أوجدت ذلك التخلف وزرعت تلك المشاكل وحرصت على الإبقاء عليها حتى أضحى الحال على ما هو عليه الآن ؟

إن تلك الدراسة تتناول أحد أهم أسباب المشاكل التى أحاطت بمعظم بلدان القارتين ألا وهو الاستعمار تلك الظاهرة القديمة الحديثة التى تلبس لكل زمان رداءًا وتتكيف لتجابه كل عقاقير الطب لتظل

ناشبة أظفارها - بصورة أو بأخرى - فى جسم وكيان بلدان قارتى أفريقيا وآسيا حتى يظل وضعهما الراهن وتخلفهما الواقع وحالتهما السيئة باقيا ومستمراً .

وقد أصبح الاستعمار فناً يتطور مع الزمن فانتقل من قيام عصابات همجية متوحشة للسطو على القبائل المجاورة لها حتى أصبح يتمتع بحماية الدول ورعاية الحكام ثم تطور حديثاً - وفى الآونة المعاصرة - ليحظى برعاية الشعوب فأصبحت الشعوب فى الدول الاستعمارية عاقدة العزم على أن يظل الفقراء فقراء - أو يزيدون فقراً - ويظل الأغنياء أغنياء - أو يزادون ترفاً وغنى - ومن المؤسف أننا نرى محافل دولية ومؤسسات أممية لا تستطيع أن تغير من الواقع شيئاً وإنما جل همها ومنتهى قدراتها تقف عند إصدار قرار لا يؤبه له أو إصدار أمر لا يعتد به ، وأخذت تنتشر مقولات - الكيل بمكيالين - أو ما يشابه ذلك ، وأصبحت منظمات تسمى منظمات حقوق الإنسان تغض الطرف طائعة أو مكرهة عن مآسى ملايين البشر - وفى الوقت ذاته - تتحدث بحماس بالغ عن قضايا فردية .

وأصبح الذين يطمعون فى الحصول على حقوقهم أو الساعين إلى الإنصاف يقفون عاجزين يستجدون حقوقهم وتعجز سواعدهم - المتهالكة - عن نيل مرادهم وأضحوا ينتقلون من سيئ إلى أسوأ ولسان حالهم يقول : إنهم أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام .

ومن وجهة نظرنا نرى أن الاستعمار كان ولم يزل وسيظل أحد العناصر الرئيسية التى ساعدت وتساعد على اختلال الموازين بين بنى البشر وساهمت وتساهم بصورة مدروسة فى زرع التخلف وتصدير الأدواء إلى البلدان غير الاستعمارية .

وإذا كانت قد دالت بعض الإمبراطوريات الاستعمارية فقد ورثتها قوى - فيما نعتقد - أنها أكثر شراسة وأشد مكراً وأقوى حرصاً

على تنفيذ خططها الاستعمارية خاصة ونحن في عالم قد تلاشت فيه المسافات والأبعاد واقتحمت وسائل الإعلام - وما أخطرها - علينا كل دار وأصبح دعاة كل نظرية يقدمونها على طبق من ذهب وبات التمييز بين الخبيث والطيب يحتاج إلى مسلم يعرف حقوقه وواجباته ومثقف يعرف أين هو بين بنى البشر .

ولما كنا فى وضع قد افلت منا عنصر الوقاية - التى هى خير من العلاج - ولنحرص على البحث عنه وأول طرق العلاج تبدأ بمعرفة الداء - تشخيص المرض - وفى الصفحات القادمة محاولة لتشخيص مرض خبيث استشرى فى جسم كثير من الدول .. فنسأل الله أن يلهمنا الصواب . ونسأله العافية .

د. مالك محمد أحمد رشوان

الفصل الأول

الاستعمار مفهومه وأقسامه

من أبرز المعالم الرئيسية التى يدركها الإنسان فى عالمنا فى الأمس واليوم – وربما فى الغد أيضاً – أن الدول الموجودة على ظهر البسيطة يمكن أن تصنف إلى أحد صنفين مالكة أو مملوكة ، وهذا الأمر كان سبباً أساسياً فى البون الشاسع والفرق البين بين مستويات الشعوب من ناحية وما تتمتع به من ديمقراطية وثروات وتقدم فى المجالات المختلفة وكأن واقع الحال يشير إلى أن المتخلفين فى طريقهم إلى تخلف أكثر والمتقدمين يحرصون على استمرار تقدمهم ويبحثون عن كل الوسائل التى تحفظ لهم تقدمهم وتفوقهم وسيادتهم على العالم .

ومهما كانت المرارة التى يتذوقها الباحث فى التقسيم السابق فإن من الواجب علينا أن نبحث بصورة دقيقة عن الأسباب التى أوصلت العالم إلى هذا الوضع المشين .

ويأتى فى مقدمة العوامل التى ساعدت على قيام وبقاء التقسيم المشار إليه ما يطلق عليه الاستعمار .

وكلمة استعمار وهى إطلاق خاطئ على سيطرة دولة أو جماعة على دولة أو جماعة أخرى .

أما المفهوم العربى لكلمة استعمار فيرجع إلى أنها اشتقت من كلمة عمَّر وهى بذلك يمكن أن تكون مرادفة للتعمير وقد ورد فى كتاب الله وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ هو الذى أنشأكم فى الأرض واستعمركم فيها ﴾ سورة هود – الآية ٦١ ، والنص الوارد فى القرآن الكريم يوضح أن وظيفة من وظائف الإنسان فى الأرض أن يعمل على تعميرها ونشر العمران فيها مستغلاً – عن طريق أحله الله سبحانه

وتعالى – ما وجد على ظهر الأرض وفى الكون من عوامل تساعد على ذلك التعمير .

فالمعنى والمفهوم العربى للكلمة يبتعد كثيراً عن الإطلاق الذى ساد بين العرب اليوم عن تلك الكلمة فأصبحت كلمة الاستعمار تطلق على " العمل أو مجموعة الأعمال التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان فى آن واحد ، وربما امتدت تلك الأعمال أيضاً إلى الماء والهواء والفضاء وكل شئ تمتد إليه يد الإنسان فى الوجود " .

وإذا كان هذا التعرف يمكن أن يشمل جميع أنواع الاستعمار قديمه وحديثه فليس هذا تعريفاً عاماً يسلم به جميع البشر ويتفقون عليه وإنما هو مجرد اجتهاد لوصف حالات تعامل المستعمر مع غيره منذ ظهور ذلك الفساد فى أرض الله وحتى يومنا هذا ، وهناك – بطبيعة الحال – من يتحدثون عن الاستعمار واصفين إياه بأنه (الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية ...... والمرادف الإنجليزى لتلك الجملة :

" Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity " .

وتكشف تلك العبارة عما يدور فى خلد فلاسفة الاستعمار حيث فسروه بأنه حركة وطنية وحاولوا إيجاد مبرر للقيام بأعمال المستعمرين من ظلم وقهر وتسلط ويغلفون تلك الأفعال السيئة بما يصبغها بصبغة أمانى البشرية فى العالم كله .

وتكشف عبارات منتسكيو فى كتابه روح القوانين ([1]) عن فلسفة أشد خطورة من العبارات الإنجليزية السابقة فيقول " لا يمكن أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى – وهو ذو الحكمة السامية – قد وضع روحاً طيبة فى داخل جسم حالك السواد ، واستغلال تلك الجماعات والشعوب حالكة السواد لا يمكن أن تستحق أى نوع من الرثاء " .

وقد أشار من يطلق عليهم رجال الدين حين استعمار أوروبا لأراضى الأمريكتين إلى أن الهنود الحمر سلالة الشيطان ، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل .

وهكذا أوجد بنو البشر المبررات والذرائع لقتل بنى البشر أو استعبادهم أو الاستيلاء على أراضيهم ونهب خيراتهم ، ولا يزالون – وسيظلون – يبحثون عن طرق ووسائل ومبررات ولسان حالهم يقول إن الغاية تبرر الوسيلة السيئة أو الوسائل القذرة وهذا ما يطلق عليه المكيافيللية ([2]) .

وعودة إلى المفهوم الذى اصطلحنا عليه للاستعمار يمكن أن نفصله على النحو التالى :

([1]) منتسكيو (١٦٨٩ : ١٧٥٥ م) صاحب كتاب روح القوانين ، فرنسى من أوائل المفكرين السياسيين ، تحدث فى كتابه المذكور عن أنظمة الحكومات وأنواعها ومساوئ ومحاسن كل نظام ، و نادى بفصل السلطات الثلاث كل منها عن الأخرى وكان لكتابه أثر كبي فى بث الروح الدستورية لدى الشعب الفرنسى.

([2]) المكيافيللية نسبة إلى نيقولا مكيافيللى (١٤٦٩ – ١٥٢٧ م) الذى ولد فى فلورنسا بإيطاليا وتدرج فى الوظائف السياسية ووضع عدة مؤلفات منها تاريخ فلورنسا وفن الحرب ومن أهمها كتابه الأمير الذى تحدث فيه عن نظم الحكم ووضع صورة للحاكم الناجح – من وجهة نظره – وانطوت كتاباته على احتقار للبشر وسوء ظن بالإنسان وحرض على عدم الوفاء بالعهود وطالب الحكام باستعمال أساليب الخديعة والمكر والدهاء لتحقيق أغراضهم ورأى أن الغاية تبرر الوسيلة القذرة أو مجموعة الوسائل القذرة التى يلجأ إليها الحكام للمحافظة على كيان الدولة وعرفت تلك المقولة بالمكيافيللية ، كما نادى بأن السياسة لا مكان فيها للأخلاق وأن القوانين الخلقية تصلح للعلاقة بين الأفراد ولا تصلح للحكومات.

١ - العمل أو مجموعة الأعمال التى يسلكها المستعمرون لتحقيق أغراضهم :

هذا الجانب من التعريف يشير إلى الوسائل المستخدمة فى تحقيق أغراض المستعمرين وهذه الوسائل تتغير من وقت لآخر حسب نوايا المستعمر من ناحية وحسب حالة وأهمية الأرض المستعمرة من ناحية ثانية وحسب ردود الفعل لدى الشعب الذى يسكن تلك الأرض من ناحية ثالثة .

ومن تلك الوسائل استخدام القوة الحربية للاستيلاء على بلد ما أو إخضاع شعب معين وصور استيلاء المستعمرين على أراضى الغير بالقوة العسكرية تحفل بها المصادر التاريخية وتكاد تشكل السلوك الغالب على خطوات الاستعمار فى عصوره القديمة .

ومن تلك الوسائل شراء بعض الأراضى وضمها لدولة غنية فى مقابل مبلغ من المال تدفعه كثمن لتلك الأرض مثل شراء الولايات المتحدة الأمريكية ألاسكا من روسيا .

ومن تلك الوسائل ما يجمع بين الشراء والتهديد باستخدام القوة أو استخدامها فعلا كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية حينما اشترت الفلبين من الدولة المستعمرة لها وهى أسبانيا وقد يكون الثمن المدفوع للدولة المتناولة ليس مادياً وإنما بعض الخدمات الخاصة كالتأييد أو الوقوف إلى جوارها فى المحافل الدولية مثل حصول بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية مقابل خدمات خاصة .

وتأتى المعونات التى تقدمها الدول الغنية إلى الدول الفقيرة كمدخل رئيسى من مداخل السيطرة أو وسيلة من وسائل الضغوط التى تفرضها تلك الدول القوية على الدول الممنوحة الفقيرة والضعيفة بدليل التلويح والتهديد بقطعها إذا ما اتخذت الدولة الفقيرة

موقفاً مخالفاً لما تراه الدولة الكبرى ، وهذا الأمر يبدو واضحاً فى مسالك الولايات المتحدة الأمريكية فى السنوات الأخيرة .

٢ - السيطرة أو بسط النفوذ والسيطرة هنا تأخذ أشكالاً مختلفة فليس من الضرورى أن يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل تكتفى بعض الدول المستعمرة بأن يكون لها نفوذ سياسى تنفرد به دون سائر الدول وتقيد به حرية البلاد التى يبسط عليها ذلك النفوذ وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحديد حجم السيطرة يرجع بالدرجة الأولى إلى الدولة المستعمرة التى تخطط لتنفيذ مصالحها وتحقيق مخططاتها فدرجة الاستعمار تتحدد حسب هوى تلك الدولة المستعمرة وحسبما خططت أو تخطط لذلك ، وقد تكون السيطرة الجزئية من دولة مستعمرة على دولة ما مقدمة لبسط سيطرة كاملة على الدولة الأخيرة مثلما حدث من بريطانيا لمصر ١٨٨٢ وبعدها . ومثلما كانت إيطاليا ذات نفوذ سياسى فى ألبانيا حتى سنة ١٩٣٩ حيث قامت فى إبريل من ذلك العام ببسط سيطرة كاملة عليها .

ولما كان الأمر خاضعاً لهوى وخطة الدولة المستعمرة فإن صور السيطرة متعددة ومختلفة فتارة تسعى الدولة المستعمرة لبسط سيطرة سياسية وتارة تسعى لبسط سيطرة اقتصادية مثل الدور الذى قامت به شركة الهند الشرقية البريطانية فى الهند وتارة تكتفى الدولة المستعمرة بجعل دولة ما تدور فى فلكها وتتصرف بمشورتها حيث تربطها برابطة معينة كبعض المعاهدات التى تقيد حركتها وتقلص من سياستها ومعاهدات بريطانيا مع ما يعرف بالساحل المهادن صورة صادقة لهذا النموذج .

٣ - والجهة التى تقوم بالسيطرة أو بسط النفوذ قد تكون دولة أو عدة دول أو جماعة منظمة من المستعمرين أفراداً أو جماعات ، وعلى ذلك فإنه يدخل ما تقوم به دولة منفردة مثل سيطرة بريطانيا أو

فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا أو الولايات المتحدة الأمريكية على دولة أو عدة دول فى أفريقية أو آسيا أو أمريكا الجنوبية ، أو ما تقوم به عدة دول مثل العمل الذى قامت به بريطانيا والولايات المتحدة ضد الأرجنتين فيما يعرف بمشكلة جزر فوكلاند المستعمرة البريطانية والتى أرادت الأرجنتين استردادها .

ومن تلك الجهات الجماعية الاستعمارية المنظمة والتى غالباً ما تبدأ أهدافها بأسلوب لاهث على الثروة وتضم إلى جوار أهدافها الاقتصادية بعض الجماعات التنصيرية وصور استيلاء المغامرين والهاربين من سجون أوربا أو من أحكام قضائية والذين استولوا على سواحل أمريكا صورة صادقة لتلك الجماعات الاستعمارية ، وقد يتطور أمر هذه الجماعات إلى نشب أظفارها وبسط سيطرتها الكاملة على البلاد وثرواتها وإبادة سكانها الأصليين والولايات المتحدة الأمريكية نموذج واضح لتلك الجماعات الاستعمارية التى انتهى بها الأمر إلى التحول إلى دولة .

ومن صور تلك الجماعات الشركات الاستعمارية كشركة الهند الشرقية البريطانية وشركة أفريقية الشرقية وقد اقتصر تدخل الدول التى تنتمى إليها تلك الشركات فى قيامها بالتصريح والإذن بتأليفها .

٤ - أما السيطرة من أولئك المستعمرين بصورهم السابقة الذكر وغيرها فإنه قد تتجه إلى التسلط على أرض فقط مثل تعامل المستعمرين مع الأراضى الخالية من السكان ويدخل تحت ذلك النوع محاولات السيطرة على الفضاء والكواكب والنجوم والبحار والمحيطات والمياه التى تقع بعيداً عن المجال البحرى للدول (٣) .

---

(٣) المجال البحرى للدول مساحة تحددها الدول ويحكمها قانون دولى يفترض أن يكون ملزماً لدول العالم لكن واقع الحال يشير إلى أن ذلك المجال تحدده الدول حسب قوتها فيضيق ويتسع حسب قوة الدولة ونفوذها الاستعمارية المدعومة بالقوة العسكرية .

ومن الأمثلة علـى الاستيلاء علـى الأمـاكن الخالية من السكان امتداد اليونان قديماً إلى بعض المنـاطق المجـاورة أو استيلاء بريطانيـا على جزر سانت هيلانة .

وقد تقع السيطرة على السكان دون الأرض .



الاستعمار قديماً وحديثاً

ليست الحركة الاستعمارية وليدة اليوم أو الأمس القريب وإنمـا يبدو أنها ظاهرة ترتبط إلى حد كبير بدافع حب التملك لـدى بعض بنـى البشر فإذا ما نظرنـا إلـى هـذا الدافـع فـى ضـوء غيـاب - أو تغييـب - المبادئ الإسلامية السمحة والوضع الأمثل لحياة البشر ممثلاً فـى الديـن الإسلامى (إن الدين عند الله الإسلام) فإنا سنجد استسـلاماً للاجتهـادات البشرية التى نرى أنها إذا استطاعت النجاح فى جانب من جوانب الحياة فإن الفشل المؤكد سيلاحقها فى جوانب أخرى .

وقد شـهد العـالم القديم إنشـاء إمبراطوريـات ضخمـة مثـل بـابل وأشور وإيران ، ومثل الدولـة الرومانيـة فـى العصـور الوسـطى ، ومـا أقامته الدولة المغولية من دول فى شرق آسيا وغربها ، وهذا يدلل علـى أن ظاهرة الاستعمار قديمة شهدتها معظم العصور التاريخية واصطلت بنيرانها شعوب وأمم مختلفة .

أما فى العصور الحديثة فالأدلة على وجود الاسـتعمار وانتشـاره كوباء لم تزل آثارها ماثلة أمامنا .

لقد استولت البرتغال - وهى دولة صغيرة - على ممتلكات واسعة ، وكذلك أسبانيا ، وبسطت هولندة سيطرتها على جزر الهند الشرقية (إندونيسيا حالياً) وسيطرت بريطانيا على الهند وكثير من الدول فى العالمين القديم (أفريقيا - آسيا - أوربا) والجديد (الأمريكتين واستراليا) .

وفى القرن التاسع عشر استولت بريطانيا على نصيب الأسد فى أفريقيا ثم دخلت كل من إيطاليا وألمانيا (بعد توحيد كل منهما) واليابان (بعد استكمال عناصر قوتها) دخلوا فى وقت متأخر فكان نصيبهم أقل مساحة من أنصبة بريطانيا أو فرنسا وهنا يشتد التنافس بين الدول المتكالبة على أراضى الغير وتأخذ كل دولة فى الكيد للدولة الأخرى وأخذ الجميع يتنافسون فى بناء الأساطيل وإعداد الترسانات البحرية والتأهب للحروب .

وكانت الحربان العالميتان أثراً لذلك التنافس على مناطق النفوذ أو المواد الخام (الثروات) أو الأسواق فى ضوء حرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تزعم أنه نصيبها من التوسع والتملك .

وإذا كان الاستعمار قديماً قد أخذ صورة الفردية أو الأعمال المحدودة فإن الاستعمار الحديث قد أصبح سمة غلبت على سلوكيات الدول التى بلغت من القوة مبلغاً ويمكننا بإيجاز أن نضع فروقاً بين الاستعمار القديم والحديث على النحو التالى :

أولاً : - لم يكن الاستعمار فى العهود القديمة عملاً تقوم به الدول ذات الحضارات المتقدمة وحدها بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة متميزة ، أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام قد ضربت فى الحضارة بسهم وافر وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو

بلاد فى حالة ضعف سياسى أو تأخر اقتصادى وثقافى وليس فى العالم اليوم شعوب وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من اغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية والدولة العربية ، والعدوان الاستعمارى اليوم عمل انفردت أو تنفرد به الدول التى تدرج فى عداد الدول المتمدينة والتى بلغت الشأو الأعلى فى التطور السياسى والمالى والحربى ، وإن كانت تلك الدول لا تقل فى وحشيتها عن الجماعات الهمجية التى قامت بالاستعمار قديماً .

ثانياً : أن التوسع الاستعمارى حديثاً قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ولا المحيطات الواسعة تشكل عائقاً أمام المتكالبين الاستعماريين للنفاذ إلى قلوب القارات وإلى الأقطار الواقعة وراء أو أمام البحار ، ولم يبق ركن من سطح أرض الله فى مأمن من امتداد يد المستعمر إليه وقد تأثرت خطوات المستعمرين بالتطور الهائل فى الكشوف والاختراعات وسرعة المواصلات .

ثالثاً : هذا وقد ترتب على هذا التوسع فى الميدان الاستعمارى أن أصبحت الدول أو الإمبراطوريات الاستعمارية الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة فى أركان الأرض ولم تعد كتلة مندمجة كما كانت قديماً فأصبحت ترى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة فى أفريقيا الشرقية والغربية وعلى مساحات أخرى فى جزر الهند الشرقية وكذلك هولنده وممتلكاتها فى آسيا وأمريكا ويبدو هذا الأمر واضحاً فى الإمبراطوريات الاستعمارية لكل من بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحات كبيرة من سطح الأرض تقع فى أماكن متجاورة متلاصقة والدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على أقاليم موزعة فى ثلاث قارات فإنها

كانت كلها مركزة حتى البحر المتوسط والدولة الاستعمارية الوحيدة التى أقامت نظامها على النسق القديم هى روسيا التى أصبحت تسمى الاتحاد السوفيتى والتى تحللت وانتهت منذ سنوات .

رابعاً : ويلحق بظاهرة تقارب وتجاور الأقطار أن العناصر الجنسية التى كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابهاً ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج فالدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على عناصر من الأسبان وأجداد الفرنسيين والإغريق والعرب والبربر فإنها كانت أكثر انسجاماً فى تكوينها من أية دولة استعمارية اليوم ، وهذه الشعوب كلها كانت فى نظر علماء الأجناس تنتمى إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير ، أما الإمبراطورية الاستعمارية الحديثة فإنها تشتمل على جميع الأجناس والألوان فى جميع مراتب الحضارة المختلفة فأضحت تضم أجناساً مختلفة وثقافات متباينة ومستويات متفاوتة .

خامساً : ومن أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الأعلى للدولة سواء أكان ملكاً أو سلطاناً أو عاهلاً أو قيصراً وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته فيعلو تبعاً لذلك شأنه وشأن أسرته والطبقة الحاكمة التى تؤيده وتلتف حوله .

وقد كانت الشعوب تدخل تحت حكم العاهل الجديد وتنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية وتشاطرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ويسرى على الجميع نظام واحد ولم تكن النزعات القومية واضحة بالصورة التى توقظ الناس وتجعلهم يشعرون أنهم قد تبعوا سلطاناً أجنبياً .

فالدولة الرومانية أسستها روما ولكنها لم تلبث أن اشترك فى أعمالها شعوب كثيرة غير سكان إيطاليا ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسبانى فى بعض العهود ، بل تولى المنصب حكام غير أوربيين ولم يبد ذلك فى نظر الناس شيئاً شاذاً .

أما الاستعمار الحديث ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر من الرعية بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها - ويالها من طامة كبرى - فصاحب الشأن فى الإمبراطورية البريطانية هو الشعب البريطانى وفى فرنسا الشعب الفرنسى وفى الأونة المعاصرة - الآن - صاحب الشأن فى الهيمنة الأمريكية هو الشعب الأمريكى . وهذا جعل الذين ينتمون إلى البلدان الاستعمارية يتحدثون بخيلاء عن أملاك دولتهم وليس إطلاق لقب (بريطانيا العظمى) و (الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس) إلا توضيحاً لذلك الفخار الذى يشعر به أهل تلك البلاد .

ولا غرابة إذن أن نجد أهالى البلدان الاستعمارية يدلون بدلوهم فى اقتطاع جزء وفير من حصاد المستعمرات وامتصاص دماء شعوبها ولا ضير فالنزعة الاستعمارية تعبر عن تلك الشعوب وهم يتحركون تحت حماية ورعاية حكوماتهم التى تشاطرهم الربح على حساب تجويع الآخرين من بنى البشر .

ومن الأمثلة على ذلك شركة أفريقية الشرقية البريطانية والتى كان لها دور كبير فى استيلاء بريطانيا على مناطق فى شرق أفريقيا ، كما أن ملك بلجيكا سمح لشركة أطلق عليها الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكونغو للتولى بنفسها كل الخطوات الاستعمارية فى ذلك البلد الأفريقى التعيس .

وقد تركت تلك الحكومات لأفرادها القيام بارتكاب الفظائع من أجل بسط السيطرة وإكمال الهيمنة وارتكب هؤلاء من الأساليب الوحشية الكثير وقد تقوم الدولة بعد استكمال سيطرة الشركة أو الأفراد

على بلد ما بحل الشركة أو إبعاد الأفراد بعد تعويضهم ماليـاً لتحـل هـى محلهم وتظهر فى صورة المنقذ أو المخلص للشعب والسكان الأصلييـن لهذا البلد وواقع الأمر ولسان الحال يذكرنا بقول الشاعر :

والمستجير بعمرو عند كربته ...... كالمستجير من الرمضاء بالنار

وهكـذا كـان الشـعب هـو المرجـع الأول فـى سياسـة الـدول الاستعمارية فى العصر الحديث وكان للحكومـة التـى ترغـب فـى بسـط السيطرة والاستيلاء على أمـلاك وأمـوال وسـكان البلـدان الأخـرى كـان عليها أن تربى شعبها أولاً تربية استعمارية حتى يقر مشروعاتها ولا بد أن تـهيئ العقول داخلياً لدى جميـع أفـراد الشـعب للتصفيـق الحـاد حينمـا تنجح الدولة فى تحقيق مكاسب استعمارية .

أسباب الاستعمار

من أهم سمات الاستعمار الحديث أن له كتاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه ، أما الغزاة الفاتحون من القدماء فقد رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التى تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالاً قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية أما فيما عدا ذلك فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى استجابة لباعث لا حاجة به إلى تفسيره أو تبريره ، أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ - من الجائز أننا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم ، لم نجد أسباباً أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ، وليس هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك القدماء ؛ وهناك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لا تختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكيز خان - لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية - فيقول اللورد كرزن مثلاً " إن الهند هى محور عظمتنا ومقياس مجدنا أو إخفاقنا ، ولئن فقدنا الهند ليكونن هذا إيذاناً بغروب شمسنا " . ويقول الكاتب الفرنسى لروابوليو إن فرنسا لا بد لها من أن تكون دولة أفريقية عظيمة ، وإلا فسرعان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية ، ولن يكون لها فى العالم شأن أعظم كثيراً مما لدى دولة مثل اليونان ورومانيا .

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أو خطر إلا بالتوسع والاستعمار ، ومثل هذا المذهب هو الذى اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا أن شعبهم لا بد له من شئ اسمه Lebensraum أى مجال حيوى يشتمل على بلاده وبلاد غيره .

وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . " اليوم لنا ألمانيا وغداً العالم كله ! " .

٢ - المذهب الاستعمارى الثانى - وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول - ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها " رسالة عالمية مقدسة " لا بد لها أن تنتشر وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم ، وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها " عبء يحمله الجنس الأبيض " The white man's burden ، وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الإنسان فى كل مكان !

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ، ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس فى كل دولة استعمارية ، وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً فى بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ - بعد هذا الطراز الاستعمارى - الذى ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى - يجئ طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذى ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم مع أن فى تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التى من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ فى الازدياد ، وأنه لا بد له من أراض جديدة يعيش فيها ،

وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة فى نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلى العلم والتفكير فى بلاد عديدة قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التى تتشده لها العذر كله أو بعضه ، وقد كثر التضليل فى هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالى لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزايدين يتوهم بعضنا بل كثير منا ، أنهم على صواب فيما يزعمون ، ولكى يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولاً : أن هنالك شعوباً أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا فى العالم الجديد ميداناً للمهاجرة والاستقرار ، ذلك ما فعله الشعب الايرلندى والشعوب الاسكندنافية وشعوب البلقان وسوريا بل الشعب الإيطالى نفسه ، فقد استطاعت الملايين من أبنا هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم فى الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً : أن الدعاية الفاشية قد اشتدت فى طلب المستعمرات فى الوقت الذى أخذ فيه نمو السكان يتناقص فى إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان فى إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً ، ولكن الذى تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلاً فى ليبيا وبلاد الحبشة

وإريتريا . فإن العنصر الإيطالى المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة فى الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم تكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسى وستار زائف للمطامع الاستعمارية التى تلتمس المبررات من أى نوع كانت .

٤ – الطراز الرابع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن – سكان مصر – خير المعرفة لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لحين ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لا بد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية أو لأن الموقع الحربى لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان .

وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع ، فمنها : الأقطار المتاخمة لحدود الدولة ، والتى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكى تحمى أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية ، ومنها الجهات التى تعرض خطوط المواصلات الإمبراطورية – مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة بالنسبة إلى الإنجليز ، وبنما بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها فى نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات فى وقت الحرب ، وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماماً فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، الثانية فإن هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ولكنها يخشى عليها إذا وقعت فى أيد معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل

جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسى . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها " ضرورى " لكى لا تقع فى أيد معادية .

٥ - الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذى أطلق عليه اسم الاستعمار الاقتصادى ، أى طلب المستعمرات وحيازتها ، لكى تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية ، وكثير من الكتاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هى الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول فى ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذى شهدناه فى السبعين عاماً الماضية .

إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير فى الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجنى الأرباح الطائلة ، والمشروعات التى يمارسونها إما تجارية ، أى أنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصريف المصنوعات والسلع ، أو زراعية بإنشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أو معدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هى المذاهب - التى حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

الفرق بين الاستعمار والفتوحات الإسلامية

قد يتبادر إلى ذهن بعض الطلاب أو من يطلعون على تلك الدراسة سؤال عن ماهية الفتوحات الإسلامية وأين موقعها من الاستعمار ؟ وهل دفع بنا التحيز العقدى أو الجنسى إلى إبعادها عن دائرة الاستعمار ؟

فنقول وبالله التوفيق .

إن الفتوحات الإسلامية والفاتحين المسلمين الذين خاضوا تلك الفتوحات – وبخاصة فى القرون الإسلامية الأولى – قد اختلفوا عن الاستعمار القديم والحديث والمعاصر فى وسائلهم وسلوكهم وأهدافهم وغاياتهم وحالة الدول التى بسطت الدولة الإسلامية عليها السيطرة ولتوضيح الفروق بين الاستعمار والفتوحات الإسلامية يمكن التركيز على عدة نقاط :

أولاً : أن الفتوحات الإسلامية قد بدأت بصورة دفاعية وليست هجومية فالرعيل الأول من المسلمين خاض عدة حروب فى داخل شبه الجزيرة العربية وكلها كانت حروباً تدور فى فلك الدفاع عن العقيدة الإسلامية بعد أن ثبت للمسلمين قيادة وأفراداً أن المتربصين بها قد نحوا كل منحى فى سبيل القضاء عليها ، وقد امتدت أيدى المتربصين إلى داخل الدولة فاستشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مؤامرة دبرت خارج حدود شبه الجزيرة كما أن حماية حدود المسلمين بعد أن امتد انتشار الإسلام إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية كان واجباً تمليه الضرورة ويفرضه واقع المؤامرات من الدول المجاورة وقبل هذا وذاك تحتمه وتنادى به الشريعة الإسلامية التى تجعل الجهاد فرض عين على المسلمين .

هذا عن الفتوحات الإسلامية فى بداية أمرها وقد مر بنا أن الاستعمار قديمه وحديثه لم يكن يوماً ما يشن حرباً دفاعية ليدافع عن عقيدة أو مقدسات أو حدود وإنما كان فى كل حالاته حروباً هجومية تشنها الجماعات أو الدول القوية ضد الدول والجماعات الضعيفة رغبة فى الاستيلاء أو طمعاً فى الثروات ... الخ الأهداف الاستعمارية .

ثانياً : أن العمليات العسكرية فى الفتوحات الإسلامية الأولى اعتمدت أساساً على فكر إسلامى قويم وشريعة سمحة تجعل إراقة الدماء وسيلة - حينما تنعدم السبل - وليست غاية لتحقيق المصالح أو بسط النفوذ .

وإذا كان الإسلام يبيح الحرب فى سبيل الله فإنها حرب أحيطت بسياج من الرحمة تخضع لأحكام ملزمة تجب مراعاتها عند القتال وتجعل القتال بعيداً عن الوحشية والهمجية والعشوائية التى سجلتها الأعمال العسكرية للمستعمر القديم والمكتشف فى العصور الوسطى واللاهث على ما فى يد الغير فى العصور الحديثة والمعاصرة .

وقد شرعت الحرب فى الإسلام بإذن من الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ سورة الحج - الآية ٣٩ .

وهنا ندرك أن الإسلام قد جوز الحرب لأغراض سامية وأسباب مشروعة تهدف إلى إعلاء كلمة الله ونصرة العقيدة والدفاع عنها .

ومن المبادئ الإسلامية فى الحرب :

أ - **تحديد المحاربين :** إذ لا يجوز قتال كل واحد من أفراد العدو بل حدد الشرع المحاربين بالقادرين على القتال أو المتصدرين له ،

أو المتفرغين للأعمال القتالية سواء كانوا فى الحرب فعلاً أو مجهزين للاحتياط فى جيش العدو ، أما الذين ليسوا أهلاً للنضال كالنساء والصبيان والشيوخ ورجال الدين والتجار والصناع وبالجملة (المدنيون) فالقتل لا يشملهم ولا يحق للمسلمين أن يقصدوهم بشىء من الحرب وأعمالها أو يتعرضون لبيوتهم أو محال تجارتهم بالنسف أو القصف أو التخريب قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ سورة البقرة - الآية ١٩٠ .

ب - **عدم تجاوز المسلمين للحدود المشروعة** فلا تمثيل بالقتلى ، قال تعالى ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ سورة البقرة - الآية ١٩٤ ، كما نهى الشرع عن استعمال وسائل التدمير إذا التبس الجيش بالمدنيين .

جـ - **وقف القتال إذا استسلم العدو وجنح للسلم** قال تعالى ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ سورة الأنفال - الآية ٦١ ، وقال تعالى ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا** ﴾ سورة النساء - الآية ٩٠ .

وقال تعالى ﴿ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ سورة التوبة - الآية ١١ .

وفى تعامل الإسلام مع أعداء الله وأعداء الإسلام يقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ سورة الأنفال الآية ٦٠ ، وتوضح الآية الإعداد الإسلامى لقتال الأعداء فى حدود الاستطاعة وهذا يدفع إلى الاعتقاد بأن آلات الحرب التى يجب على المسلمين إعدادها لا تشمل أسلحة التدمير الشامل أو التشويه الخلقى أو الفتك بالأحياء من إنسان وحيوان ونبات أو ذلك الصراع المحموم غير المقنن الذى تخوضه القوى الاستعمارية ، كما أن الآية قد أوضحت الغرض من إعداد تلك القوة وهو إرهاب العدو والإرهاب يعنى التخويف وشتان بين التخويف وبين الحرب المباشرة .

وهكذا قنن الإسلام استخدام أداة الحرب ووجه المحاربين لتكون الحرب وسيلة وليست غاية وتكون إراقة الدماء فى أضيق الحدود فالإنسان فى العقيدة الإسلامية ينظر إليه من خلال قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ سورة الإسراء – آية ٧٠ .

والبون شاسع بين الجندى المسلم الذى تحكمه الضوابط السابقة وبين جند الاستعمار قديمه وحديثه والذين أعدوا الأسلحة الكيماوية والقنابل الذرية ، والجرثومية ، والغازات السامة ، والقنابل النووية ... الخ وصفحات التاريخ حافلة بحالات الإبادة الجماعية التى شهدتها البشرية على أيدى غير المسلمين قديماً وحديثاً .

ثالثاً : أن الفتوحات الإسلامية تختلف فى غاياتها وأهدافها فتشريع القتال وضع فى الإسلام للدفاع وليس للهجوم وهدفه وغايته التى خرجت طلائع جند المسلمين عاملة على تحقيقها تكمن بالدرجة الأولى بعد تأمين الحدود وسد الثغور فى نشر نور العقيدة الإسلامية والتحدث بنعمة الله بعد صدور الأمر الربانى إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ**

﴿إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ سورة المائدة - الآية ٦٧ .

فالمقاتل المسلم قد خرج يحمل سلاحه ليستعمله إذا اقتضت الضرورة ، أما هدفه الرئيسى فهو تعريف بنى البشر بأن ديناً ينظم حياة الناس ويهذب طبائعهم ويقودهم إلى سعادة دنيوية متبوعة بسعادة ومثوبة أخروية والطريق الإسلامى لتحقيق ذلك قد أوضحته خطوات الرسول صلى الله عليه وسلم إذ أرسل مبلّغاً لكل زعامات البلاد المجاورة إليه والأمر يدعو إلى تأمين إيصال البلاغ إلى البشر وإلى الناس حتى يهتدى من هداه الله وحتى يسعد أكبر عدد من بنى آدم بنور تلك العقيدة وما تضمنته من مبادئ جدير بالإنسان أن يسلكها وهى جديرة بأن يسعى الناس لإبلاغها فلم يكن يوماً ما هدف المسلمين من حروبهم توسيع دائرة النفوذ أو الاستيلاء على أراضى الدول المجاورة أو احتلال بلدان الغير أو استلاب أملاكهم وأموالهم أو جلب المواد الخام إلى بلادهم أو فتح أسواق لتصدير منتجاتهم ... الخ الأهداف التى ينشدها المستعمرون .

وهذه مقارنة بين بعض البلدان التى خضعت للحكم الإسلامى والأخرى التى خضعت للاستعمار .

ولو نظرنا إلى أحوال بعض البلدان التى خضعت للحكم العربى الإسلامى لأدركنا كيف تحول حالها إلى أحسن من جميع نواحى الحياة فقد خضعت - مثلاً - صقلية للحكم العربى الإسلامى ولم تكد ترسخ أقدامهم فى صقلية حتى أقبلوا على الزراعة فانتشلوها من الانحطاط الذى كانت فيه وأدخلوا إليها زراعة القطن وقصب السكر سنة ٣٢٣ هـ وكذلك الزيتون وحفروا فيها الترع والقنوات التى لم تزل باقية حتى الآن .

كما تقدمت الصناعة فى صقلية بفضل العرب واستغلوا ثرواتها الطبيعية كما استخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت والمرمر والجرانيت وأدخلوا إليها صناعة الحرير ، وكل شئ يدل على أن عرب صقلية هم الذين علموا أوربا صناعة المنسوجات (كما يشير إلى ذلك جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب) .

ويقول أمارى فى كتابه المسلمون فى صقلية - إن سكان صقلية كانوا يعيشون فى راحة على عهد حكامها من أمراء المسلمين وحالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين حيث كانوا يرزحون تحت حكم بعض القوى الأوروبية .

وبقيت فى الجزيرة كثير من العادات العربية وتأثرت لغتهم باللغة العربية ولا تزال عدة أماكن تحمل الأسماء العربية وكثير من المدن لم تزل بمسمياتها العربية .

وفى بلرم أنشأ العرب أول مدرسة للطب والتى لم يعهد مثلها فى أوربا ويرجع إلى تلك المدرسة الفضل فى انتشار الطب بايطاليا .

أما مصر فإن أمر استيلاء العرب المسلمين عليها يستوقف النظر فقد قاوم أهلها من قبل نفوذ الإغريق والرومان ولكنهم سرعان ما انخرطوا فى الإسلام واعتنقوه وأصبحوا جزءاً من العرب الخلص الذين أسهموا بنصيب وافر فى خدمة الإسلام والحضارة الإسلامية .

ولا نبالغ إذا قلنا أنه منذ فتح العرب مصر وخلصوا نصاراها من الاضطهاد المذهبى الرومانى أصبحت مصر وأصبح أهلها جناحاً مهماً نشيطاً حلقت به الدعوة الإسلامية إلى شمالى أفريقية وساعد ذلك على نشر العقيدة الإسلامية ليس فى شمال أفريقية فقط وإنما فى جنوبى أوربا .

ويمكن أن نقيس على هذين النموذجين كل الدول التى دخلت تحت الحم الإسلامى واعتنق أهلها الإسلام .

وليس أدل على دخول تلك الشعوب فى الإسلام طواعية وانضمامها إلى تلك العقيدة اختياراً من أن حشداً هائلاً من كبار العلماء الذين خدموا الفكر الإسلامى والعالمى من المسلمين كان من أهل بلدان غير عربية ، ويبدو ذلك جلياً إذا أدركنا أن سيبويه أكبر من خدم اللغة العربية كان فارسياً والإمام البخارى أكبر من خدم السنة النبوية كان من بلدان وسط آسيا وكذلك الطبرى والترمذى والطبرانى وغيرهم ، كما كان ابن خلدون رائد علم الاجتماع من البربر وكان طارق بن زياد الذى اعتمدت على قيادته القوات الإسلامية وهى تعبر المضيق الفاصل بين أفريقيا وأوربا (والذى عرف باسمه فسمى مضيق جبل طارق) كان بربرياً أيضاً .

وإذا كنا هنا نعقد مقارنة بين الدول التى خضعت للفتوح الإسلامية وبين الدول التى خضعت للاستعمار فحالتها ماثلة بين أيدينا اليوم وغداً تكتب أمامنا سجلاً حافلاً للتخلف والمعاناة والمجاعات والبؤس بعد أن امتص المستعمرون خيراتها وتركوها خراباً يباباً يعانى أهلها الأمرين ويعيشون حياة الذل والهوان والقائمة طويلة تشمل معظم دول أفريقيا ويمكن أن يضاف إليها بعض الدول الآسيوية التى خضعت للاستعمار مثل باكستان – بنجلاديش – أفغانستان – إندونيسيا – الفلبين وغيرها .



الفصل الثانى

صور من الاستعمار

الكشوف الجغرافيا
خطوة من خطوات الاستعمار

تضافرت عوامل عديدة أدت إلى تحرك بعض الدول والجماعات الأوربية فى محاولة للسيطرة على جيرانهم وكانت أفريقيا أول الميادين التى اصطدمت بوفود هذه الجماعات إليها والتى لم تلبث أن بسطت سيطرة على بعض بلدانها ، وقد امتدت تلك السيطرة إلى معظم وسائل الحياة من موارد اقتصادية وقوى بشرية ولم تزل أفريقيا حتى يومنا هذا تعانى من جراء ما حل بها على يد أولئك الذين جاءوا إليها تحت اسم المكتشفين .

ومن أهم العوامل التى أدت إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية :

أ - العامل الاقتصادى :

اتجه المكتشفون إلى أفريقيا وغيرها من الأماكن الأخرى يدفعهم إلى ذلك الطمع فى تحقيق الثروة السريعة من ناحية والسيطرة على طرق التجارة من ناحية أخرى خاصة وأنه من المسلم به أن حركة الكشوف قد تبع نجاحها اكتشاف طرق جديدة جعلت البلدان الأوربية الرائدة فى مجال الكشوف تحتكر - أو تعمل على احتكار - طرق تجارة الشرق فكان كشف ما يعرف بطريق رأس الرجاء الصالح نتيجة من نتائج الكشوف وكان تحول طريق التجارة إليه هدفا سعت إليه حكومات أوربا التى أدلت بدلوها مبكراً فى حركة الكشوف الجغرافية .

ب - العوامل الدينية والأحلام الصليبية :

كانت العوامل الدينية قوة دافعة لا ريب فيها وراء حركة البعوث الكشفية الجغرافية فكانت البرتغال وأسبانيا من أسبق الدول فى إيفاد هذه البعوث وكانت الناحية الدينية تلعب دوراً كبيراً فى تخطيط سياسة هاتين الدولتين وكانت تكمن فى هذه الناحية الدينية روح صليبية جارفة فالكشوف الجغرافية لا بد أن يكون من أهدافها تحويل المسلمين فى غرب أفريقيا وغيرها من المناطق الأهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية والكشوف الجغرافية فيما وراء البحار يجب أن يكون من مراميها نشر الديانة المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى بين السكان الأصليين والوثنيين فى تلك الأصقاع البعيدة .

بل أن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضا تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكى وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر ومن أهم الأسباب التى جعلت الناحية الدينية المسرفة فى تعصبها تلعب دوراً طاغياً فى سياسة البرتغال وأسبانيا أن الروح الصليبية كانت قد تسلطت على سكان هذين الإقليمين فى القرنين الخامس والسادس عشر فأخذوا يضيقون الخناق على السفن الإسلامية فى الأندلس ، وكانت هذه القوى تزداد وهناً على وهن فى الوقت الذى أخذت فيه الإمارات المسيحية تأخذ بأسباب القوة والوحدة .

وكان قد تم فى سنة ١٤٦٩ زواج فرديناند حاكم أرجونة من ايزابلا حاكمة قشتالة وكان هذا الزواج بمثابة مولد أسبانيا المتحدة فى التاريخ الحديث وسرعان ما أمعن هذان العاهلان فى سياسة الاضطهاد الدينى واستئصال شأفة كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكى ، وكانت أول الأعمال التى قاما بها الاستيلاء على غرناطة وهى آخر معقل للمسلمين فى شبه جزيرة ايبريا ويلاحظ أن سقوط غرناطة وطرد اليهود من أسبانيا وتعاقد ملك أسبانيا مع كريستوفر كولمبس على القيام

برحلته الكشفية الجغرافية الأولى كل هذه الأحداث التاريخية البارزة وقعت كلها فى سنة واحدة وهى سنة ١٤٩٢ .

ولما تم إجلاء المسلمين عن الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة ايبريا تحمساً وشراهة فى مطاردة المسلمين خارجها وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربها يتعقبون المسلمين وراودتهم الآمال بإمكان محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وسحقه فى آسيا وأفريقيا ولذلك فإن الشعور الذى احتوى مسيحى شبه جزيرة ايبريا بوجوب محاربة الإسلام كان شعوراً امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة العنيفة بالنزعة الاستعمارية .

وحظيت الكشوف الجغرافية بأعظم اهتمام من البابوية وأصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يخولون فيها ملك البرتغال وأسبانيا الحق فى ملكية كل إقليم جديد أو كل بحر جديد يتم اكتشافه فى الحاضر والمستقبل وتورط بعض الباباوات فى هذه المراسيم فوصفوا الإسلام بأنه طاعون وطالبوا ببذل الجهد لتنصير سكان المناطق التى كشفت أو سوف تكتشف والحيلولة دون إصابتهم بذلك الطاعون (الإسلام) .

وفى نفس الوقت بذلت البابوية نفوذها الأدبى لإغراء التجار بالانخراط فى سلك البعوث الكشفية حين كان الإقبال على العمل فى سفن الكشوف الجغرافية فاتراً وكان الباباوات يعدون المشتركين فى تلك الرحلات بالعفو من الحساب فى اليوم الآخر والفوز بالجنة والنجاة من النار وصدرت الأوامر برسم الصلبان على أشرعة السفن وكان دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى فى العالم الجديد .

وجاء البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) فأدلى بدلوه فى مجال الآمال الصليبية واستغرق هذا البابا فى خيال خصب فوضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة والقضاء

على الإسلام قضاءاً مبرماً وأرسل فى سنة ١٤٥٤ إلى ملك البرتغال مرسوماً بابوياً تضمن ما يعرف باسم خطة الهند وتقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء على الإسلام قضاءاً مبرماً بعد أن تحقق كشوف الجغرافيين أهدافها ويتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين سواء فى أفريقيا أو فى آسيا كى يسهم هؤلاء الملوك فى تزويد الحملات الصليبية بالأموال والرجال والعتاد حتى يتم تطويق البلاد الإسلامية .

وقد ترتب على التنافس لتحقيق الأهداف السابقة قيام البرتغال بالاستعداد وحشد الهمم للمسارعة فى بدأ الكشوف الجغرافية واهتم حاكمها الأمير هنرى (أو هنريك) الملقب بالملاح (١٣٩٤ : ١٤٦٠ م) بجمع المعلومات واستطاع مبكراً أن ينجح فى الاستيلاء على مدينة سبتة (المغربية) على الساحل الأفريقى ثم جاشت فى نفسه رغبة قوية لطرد المسلمين من كل أراضى مراكش (المغرب) كما تم طردهم من شبه جزيرة أيبريا .

وقد أشرت من قبل إلى دور باباوات الكنيسة فى إشعال العواطف الدينية لدى البعض حفزاً لهم على مواصلة خطوات الكشوف .

وواصل البرتغاليون كشوفهم وسيطرتهم على بعض الشواطئ الأفريقية حتى وصلوا إلى مصب نهر السنغال وأخذت تراودهم فكرة الاستحواذ على طريق تسلكه تجارة الشرق بعيداً عن أيدى الحكومات الإسلامية وعن أيدى تجار البندقية وسخرت البرتغال جواسيس يهود [٤] ليجمعوا المعلومات عن الملاحة والبحار من البلدان الإسلامية وعمل أولئك الجواسيس المتخفين فى زى تجار برتغاليين على تحقيق مطلب أسيادهم البرتغاليين فوصلوا إلى مصر وبعض البلدان العربية فى

---

(٤) كان على رأس أولئك الجواسيس اليهود ألفونسو دى بايفا ربيرودى كوفيلهام .

سنة ١٤٨٨ م ، وأتت رحلات جاسوسية أخرى استطاعت أن تجمع الكثير من المعلومات البحرية المهمة حتى بدأت تلوح فى الأفق بوادر نجاح البرتغال فى تحقيق أهدافها الاستعمارية .

وقام فاسكو دا جاما برحلته فى ١٤٩٧ م وتمكن من الالتفاف حول جنوب أفريقيا واستعان بالربان العربى أحمد بن ماجد فى الوصول إلى سواحل الهند .

وتواصلت حركة الكشوف حتى أقام البرتغاليون إمبراطورية فى أفريقيا وآسيا كما نزل الأسبان إلى ساحة الصراع على الكشوف وتضاربت أهداف الفريقين حتى تدخلت الكنيسة لرسم الحدود بينهما .

وتبعتهما الدول الأوربية الأخرى هولنده - بريطانيا - فرنسا - بلجيكا وغيرها حتى أضحت علامة من علامات قوة الدول أن تكون لها أملاك فيما وراء البحار لتشكل الكشوف الجغرافية حلقة من حلقات الاستعمار . وقد أدى تكالب الدول الأوربية على استعمار أقطار أفريقيا وآسيا والعالم الجديد إلى ظهور فوضى دولية وصراع شرس ذهب ضحيته الآلاف من البشر .

سنة ١٤٨٨ م ، وأتت رحلات جاسوسية أخرى استطاعت أن تجمع الكثير من المعلومات البحرية المهمة حتى بدأت تلوح فى الأفق بوادر نجاح البرتغال فى تحقيق أهدافها الاستعمارية .

وقام فاسكو دا جاما برحلته فى ١٤٩٧ م وتمكن من الالتفاف حول جنوب أفريقيا واستعان بالربان العربى أحمد بن ماجد فى الوصول إلى سواحل الهند .

وتواصلت حركة الكشوف حتى أقام البرتغاليون إمبراطورية فى أفريقيا وآسيا كما نزل الأسبان إلى ساحة الصراع على الكشوف وتضاربت أهداف الفريقين حتى تدخلت الكنيسة لرسم الحدود بينهما .

وتبعتهما الدول الأوربية الأخرى هولنده - بريطانيا - فرنسا - بلجيكا وغيرها حتى أضحت علامة من علامات قوة الدول أن تكون لها أملاك فيما وراء البحار لتشكل الكشوف الجغرافية حلقة من حلقات الاستعمار . وقد أدى تكالب الدول الأوربية على استعمار أقطار أفريقيا وآسيا والعالم الجديد إلى ظهور فوضى دولية وصراع شرس ذهب ضحيته الآلاف من البشر .

من صور الاستعمار الحديث

٢ - الانتداب والوصاية والاستعمار (*)

انتهينا فى الفصل الماضى إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد فى الشئون والعلاقات الدولية ، فلم يكن فى ميدان التكالب الاستعمارى متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ، وذلك أن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق فى هذا الميدان . فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار فى مختلف القارات والأقاليم تجعل منها " مستعمرات تاج " أو " حمايات " أو " مناطق نفوذ " أو " قواعد عسكرية " أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التى اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة فى الميدان حقوق مكتسبة مقررة . ولم تترك للدول " اللاحقة " أو المتخلفة سوى لقيمات خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ولا رى فيها للظمأ الاستعمارى الذى يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء وإخلاف العهود والحنث بالأيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبجلة مثل بريطانيا يطلق عليها الكتاب فى أوربا اسم ألبيون الحانث Perfide Albion . ومع أن بريطانيا قد اشتهرت بإتقان هذه السياسة والنبوغ فيها غير أننا رأينا هذه البذرة الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ، حتى رأيناها تنضج فى أكثر صورة وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية التى جعلت من نقض المعاهدات فناً من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبقت فنها فى القارة الأوربية نفسها ،

(*) راجع الملحق رقم ٢ فى آخر هذا الكتاب والذى يتضمن اتفاقية سايكس بيكو كنموذج للتقسيم الاستعماري لبعض البلدان العربية .

وهى الميدان الوحيد الذى تحاشته السياسة الاستعمارية الحديثة فكأن الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا وبريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوربية وأن تنأى بنشاطها الاستعمارى إلى " ما وراء البحار " لأن المسرح الأوربى واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتتعرض فيه السياسة الاستعمارية للمؤاخذة الشديدة ، وفى الأقطار البعيدة عن أوربا ميدان أوسع ومجال أرحب تجنباً للنقد واللوم .

أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمه مثل تلك الاعتبارات وقد أغلق باب التوسع وراء البحار . وهى على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت فى أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التى سارت عليها الدول الاستعمارية فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وكأنما أرادت أن تذهب فى التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها فى مارس سنة ١٩٣٩ اسم " حماية " بوهيميا ومورافيا ، ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر ويوجوسلافيا وبولندة والدنمارك حمايات أخرى . ولأن الدول التى تحرص على التوازن فى أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية التى أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أنه ليس من الإسراف فى شئ ما ذهبنا إليه من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر فى قيام الحربين العالميتين الأولى والثانية وما جرته على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعى أن تعلن الدولة المعادية للمحور أنها تشهر حرباً " مقدسة " ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك ، وهذا التبرؤ نفسه اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شئ ينبغى التنصل منه كأنه وصمة تأبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبة لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهى دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الطرفين ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها ، وكانت السنة القديمة تقضى بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة من غير أدنى تحرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة التى قامت فيها الدول المتحالفة فى الحرب الأولى والأمم المتحدة فى الحرب الثانية كانت قد ملأت البقاع والأصقاع وانتشرت فى الشرق والغرب ، وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يجعل من الممكن للدولة الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ، ولم يكن بد من أن تعدل عن الخطة القديمة وأن تنهج فى التصرف فى مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً ، ولذلك سنت مبدأ الانتداب فى المرة الأولى ومبدأ الوصاية فى المرة الثانية ، وكان هذا المسلك الجديد اعترافاً ضمنياً بأن الاستعمار من الشرور التى لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التى تؤذى العيون . فلا بد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلكاً ينطبق على المنطق السليم . إذ لو كان الاستعمار فى نظرها شراً من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلكات ، لكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضى القديمة حق مكتسب لا معنى للتخلى عنه ، وأن المبدأ الجديد لن ينطبق إلا على الأراضى التى زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة حتى نرى إلى أى مدى نستطيع أن نعده شيئاً جديداً فى السياسة الدولية يتمشى مع المبادئ الإنسانية التى تورط الحلفاء فى الدعاية لها ، أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تتخذ منه الشهوة الاستعمارية ستراً جديداً أو ستراً رديئاً . لقد كان بين المنادين بفكرة

الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقاً على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرقى والرخاء ولكن هذه الجماعات لم تكن هى التى قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول التى لم يكن مسلكها الاستعمارى فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدى التى لم تكن طاهرة أو نظيفة ، أن تنقلب فجأة إلى أداة كلها طهر ونبل وإخلاص .

تعريف الانتداب :

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التى سلخت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت فى أوربا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا وإيطاليا ورومانيا ويوجوسلافيا وغيرها . واعتبرت هذه الإجراءات مجرد تعديل فى الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم ترنتينو ، ولا فرنسا منتدبة على الألزاس واللورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرا ، بل أصبحت هذه الأراضى جزءاً متمماً للدول التى ضمت إليها وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضى التى زال عنها حكم تركيا وألمانيا فى قارتى آسيا وأفريقيا . أى أنه كان مقصوراً على القارات التى كانت تدخل فى نطاق التوسع الاستعمارى وعلى الأقطار التى كانت مطمع أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه :

" هو عبارة عن حد - فرضه الفاتحون على أنفسهم - من حق السيادة التى أحرزوها على الأمم التى قهروها " .

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور فى اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم فى شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن ننعم النظر فى هذا التعريف الذى يلقى شيئاً

من الضوء على العقلية الاستعمارية وأسلوبها فى التفكير . فنلاحظ فى هذا التعريف :

أولاً - أنه يشير إلى أن الحد من حق السيادة - ولم يقل النزول عن تلك السيادة ، كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التى ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانياً - وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم - تنبئ من غير شك بأنهم أصحاب الشأن فى تحديد مدى هذا " التحديد " .

ثالثاً - أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية - وصف أقل ما يقال فيه أنه ينافى تلك الدعايات الإنسانية التى كثر التحدث بها فى الدول الغربية .

رابعاً - أغرب شئ فى هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلاً - بأنه قهر للأمم العربية - مع أنه لولا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرد الجيش التركى منها .

فهذا تعريف لمعنى الانتداب يفيدنا فى تفهم عقلية الساسة الذين تولوا تطبيق الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا فى فهم المعنى الذى رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول فى سن هذا المبدأ .

وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ما جاء فى أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب :

" المستعمرات والأقطار التى زالت عنها - بسبب الحرب - سيادة الدول التى كانت تحكمها من قبل ، والتى يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم فى الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضى بأن رفاهية هؤلاء السكان

وتقدمهم أمانة مقدسة فى أعناق الدول المتمدنة ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل " .

هذا النص أدنى إلى ما كان يجول بخاطر الذين سنوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف وبين ما ذهب إليه اللورد بالفور هو الفرق بين عقلية واضعى نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب :

وقد جعل الانتداب جزءاً لا ينفصل من نظام عصبة الأمم ، وهى الهيئة التى أنشئت للسهر على الأمن وتنظيم علاقات الشعوب طبقاً لمبادئ العدل والتعاون ، وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان فى الوعى السياسى والنمو الاقتصادى والثقافى وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما **النوع الأول** فيشمل تلك الأقطار التى كانت من قبل جزءاً من الدولة العثمانية . وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن الاعتراف بهم كأمم مستقلة . وفى هذه الحالة يكون واجب الدولة التى تتولى الانتداب مقصوراً على بذل الإرشاد والمساعدة إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسى الكامل وتتمتع بالاستقلال التام . ومن الواجب أن يستأنس برأى هذه الأمم فى اختيار الدولة التى تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب **الدرجة الثانية** فيشمل المستعمرات الألمانية فى غرب وشرق أفريقيا فى المنطقة الاستوائية وهذه الأقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها ، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه .

أما انتداب **الدرجة الثالثة** فيشمل أفريقيا الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة فى المحيط الهادى التى كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفى هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شئ إلى النظام الاستعمارى القديم .

توزيع الانتداب :

كان الواضعون لمبدأ الانتداب والذين دعوا إليه يظنون أن توزيع الأقطار التى يطبق عليها نظام الانتداب سيجرى بطريقة خلاف التى اتبعت فعلاً فيما بعد . كانوا يرون أن توضع تلك الأقطار جميعاً تحت تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق فى أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذى تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته ، وللعصبة الحق فى نظرهم أن تتولى هى الإشراف على أى قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التى تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا الرأى أن ينصوا على هذا فى ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا إلى النزول عنه .

نظراً لأن الانتداب بالصورة التى حددها ميثاق العصبة عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به ، وهو غرم وليس بغنم ، كان من المنتظر أن تتردد الدول فى قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تتريث كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة ، ولكن الذى حدث فعلاً هو أنه كان هناك تزاحم شديد على تولى الانتداب ، ورغبة حارة فى الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول الظافرة فى الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات إلى هيئة مستقلة أو شبه مستقلة – مثل عصبة الأمم – وفضلت أن تجرى بينها المساومات والمفاوضات فى اجتماعات خاصة تعقدها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفى النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمراً فى سان ريمو بايطاليا - فى ربيع عام ١٩٢٠ - واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول . وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد واختصت اليابان بجزر المحيط الهادى ما عدا جزيرة ساموا التى تركت لنيوزيلندة الجديدة ،وكلفت استراليا بإدارة الجزء الألمانى من جزيرة غينيا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فأعطيت - على سبيل جبر الخاطر - قطعة من شرق أفريقيا الألمانى ، وهى القطعة التى تشتمل على إقليم رواندا وبوروندى . أما إيطاليا فلم تعط شيئاً مطلقاً وخرجت من المؤتمر صفر اليدين ، مع أنه عقد فى أرضها وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتزاحم والتدافع التى رأيناها من قبل فى النشاط الاستعمارى فى القارة الأفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فإن هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم ، فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التى ستسألها عن تأديتها .

تنفيذ الانتداب :

والآن لا بد لنا أن ننظر كيف يؤدى الانتداب وظيفته طبقاً للنظم التى قررتها عصبة الأمم ، فهنالك هيئات مكلفة بالإشراف - ولو من بعيد - على نظام الانتداب ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن فى مراقبة الانتداب من بعيد هى مجلس عصبة الأمم المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع

الأكبر للبت فى جميع الشئون المتصلة بالانتداب - فإليه ترفع التقارير والشكاوى والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب أو إلغاء الانتداب فى أى قطر من الأقطار وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتداب فى اجتماعات الجمعية العامة التى تضم جميع أعضاء العصبة . ولكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة فى كل عام ، كان أثرها فى مسائل الانتداب ضئيلاً لا يستحق الذكر .

ولكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير فى شؤون الانتداب . وهى الهيئة التى أطلق عليها اسم لجنة الانتداب . وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحكم والاستعمار يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده فى كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة فى كل عام على الأقل ، وتتلقى التقارير الرسمية التى ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التى كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب لكى يجيب الأسئلة التى توجهها إليه اللجنة .

ولعل هذه اللجنة هى الأداة الرئيسية فى نظام الانتداب . لأنها هى التى كانت تتولى فعلاً مناقشة مندوبى الدول صاحبة الانتداب ومحاسبتهم عن أعمال ، ولكنها لا تملك من السلطة أكثر من أن ترفع بياناً ببحثها إلى مجلس العصبة لكى يتصرف فى الأمر كما يشاء . وفوق ذلك لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ما تسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التى أطلق عليها أحياناً اسم " صك الانتداب " هى التى تتضمن الشروط التى يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذة

الدول المنتدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفا لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبة الانتداب نفسها ، وهى التى رتبت فصولها وبنودها . ثم رفعتها بعد ذلك إلى مجلس العصبة لكى يقرها .

ومن الجائز أن يعدل المجلس فيها تعديلا طفيفا ، ولكنه قلما يمس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شك عيب كبير فى نظام الانتداب كله وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فقد كانت الدولة تنتدب أولا على قطر من الأقطار ثم تقوم هى بوضع شروط الانتداب ثم تعرضه على المجلس للموافقة . وكان من الواجب أن تكون هناك هيئة مستقلة ولتكن السكرتارية العامة لعصبة الأمم - تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقا لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التى تقبل الانتداب طبقا لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكن بعض الدول من أن تضع فى صك الانتداب أمورا لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة بحيث لا تقيدها فى أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أى إجراء شاذ تقوم به ، وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن لجنة الانتداب فى سنة ١٩٢٥ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة ، ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدال بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسى على سوريا لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة المطلقة التى يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق للتفتيش أو القيام بأى إجراء فى داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب

الاكتفاء بالتقارير الرسمية التى ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التى تأتيه أحياناً من مختلف الهيئات والأفراد .

كذلك لم يكن فى ميثاق عصبة الأمم أى نص يخولها أن تؤاخذ الدولة المنتدبة على أى إجراء تقوم به أو أى جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب أو نقله إلى دولة أخرى ، أو أى إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام فى كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب :

إن غرضنا الأول من هذا البحث أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتتبع سير الانتداب فى كل قطر من الأقطار . ولكن لا بد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشىء من الإيجاز بعض الأحوال التى نجمت عن انتداب فى بعض الجهات لكى ندرك إلى أى درجة كان هذا النظام الجديد ليس خيراً من النظام الاستعمارى القديم . وحسبنا الآن أن نشير إلى الأمثلة الآتية :

١ – تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادى ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها ، واحتفظت بتلك الجزر وأخذت تجعل منها قواعد حربية تديرها كأنها ملك لها لا تؤدى عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لأية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول .

٢ – ارتكبت فرنسا فى انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة من أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف ، مع أن الميثاق صريح فى أن واجبها الأول تأييد الحركة الوطنية والسير بها إلى الاستقلال التام . وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من هذا خطراً ، فقد نزلت لتركيا عام ١٩٣٠ عن إقليم قليقية ، ثم نزلت لها فى عام ١٩٣٩ عن سنجق الاسكندرونة ، وقامت بكلا الإجراءين – وهما

يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب – دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

٣ – بدأت بريطانيا سياستها فى العراق بقمع الحركة الوطنية وبإرسال جيش بقيادة الجنرال سير ايلمر هولدين لهذا الغرض عام ١٩٢٠ ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر وهو أن تنشئ معاهدة بينها وبين حكومة العراق لتحل محل الانتداب ، وهكذا استبدل العراق بقيود الانتداب قيداً جديداً قبله بمحض اختياره .

٤ – ولا يتسع المقام هنا للإشارة إلى الانتداب الفلسطينى الشاذ ، ولكن أمره على كل حال معروف للقراء فى جميع الأقطار العربية . وربما كانت هناك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الكتّاب ، وهى أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقتها بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار لكى تثبت أقدامها فى هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربى والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً لدولة مثل بريطانيا . ورأى الساسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكى تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد فى السكان بطريقة توغر صدور العرب ، وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم " محايد " لكى يفصل بين المختصمين ، وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها فى فلسطين إلى أجل غير مسمى .

وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين ، ولكيلا يكون لدى القارئ أدنى شك فى هذا ، فإنى أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتّاب البريطانيين أنفسهم :

لقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تمبرلى عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

" كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعتها إلى السياسة التى اتبعتها فى فلسطين . وهذه الأسباب قد نتبينها فى المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، فى إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا ومؤازرتها ، هذا إلى جانب ما تناله من تأييد اليهود فى جميع أنحاء العالم . هذه هى النظرة البعيدة التى اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية " .

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت فى كتاب من الطراز الأول لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكنا رغبة فى زيادة الإيضاح نشير إلى ما جاء فى كتاب آخر لمؤلف وسياسى مشهور هو السير مارتن كونواى . وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها . قال كونواى : " إن الخطر الحقيقى على قناة السويس لا يجئ من الغرب بل من الشرق ، فمن ناحية فلسطين يجئ الخطر الجدى دائماً .. ومن وراء فلسطين سوريا ومن وراء سوريا الأتراك - ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا ألمانيا فى الماضى أو روسيا فى المستقبل ... من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا لا أصدقاء يعاوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول " .

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمتين فى فلسطين ، وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لكى تحمى كل فريق من عدوان الآخر . وهذه فى نظره حالة مثالية لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدود .

وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها في فلسطين ، وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والوصاية :

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت في ظله آثام وشرور جعلته بغيضاً إلى العيون والأسماع ، حتى آمن الناس جميعاً بأن نظام الانتداب ما هو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قد تكون أبشع وأفظع مما عرف في تاريخ الاستعمار كله ، من أجل ذلك أراد الرئيس الأمريكي روزفلت أن يخلق نظاماً جديداً ، وأن يجعل له اسماً جديداً واختار للحالة الجديدة اسم " الوصاية " بدلاً عن الاسم القديم المكروه ، وقد أراد أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الوصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصوراً على الأراضي التي سلخت من إيطاليا واليابان بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، فقضى نحبه قبل انعقاد مؤتمر سان فرانسيسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذي أنشأ نظام الوصاية الجديد ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهي الفصل الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارئ فلا أشرح له تفاصيل نظام الوصاية كما سبق لي أن شرحت نظام الانتداب ، فإن مثل هذا الشرح التفصيلي يستدعي تكراراً مملاً . وحسبي أن أذكر هنا النواحي الهامة التي يختلف فيها نظام الوصاية عن الانتداب من الناحية النظرية الصرفة وتتلخص هذه الاختلافات فيما يلي :

١ – تمتاز وثيقة الوصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التي لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الوصاية الجديد ، وذلك

بأن تعهدت الدول فيما يختص بتلك الأقطار بأمور هامة . إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية ورفاهية سكان هذه الأقاليم وأن تكفل تقدم هذه الشعوب فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمى فيها الحكم الذاتى وأن تقدر الأمانى السياسية لتلك الشعوب حق قدرها ، وأن ترسل – فوق ذلك – بيانات عامة : فى مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ – أدخلت فى نظام الوصاية ظاهرة جديدة وهى تقسيم الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية ، والمفهوم أن هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى أو أى عدوان آخر فى المستقبل .

٣ – تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن ، أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ – لمجلس الوصاية حق التفتيش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .

٥ – يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هى الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس فى الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هناك نص يمكن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء

إذا أساء الوصاية – على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارئ أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه صورة ملطفة أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة على كل حال بالنصوص النظرية التى تضمنها هذا الميثاق أو ذاك .

فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن فى ذاتها رديئة . وإنما العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التى تمارس بها كل دولة عملها ، وتؤدى بها رسالتها وتنفذ عهودها .

الفصل الثالث

نماذج من الاستعمار الحديث

١ - الأطماع الاستعمارية الأوربية في ليبيا

على الرغم من أن إيطاليا هى الدولة التى قدر لها أن تستحوذ على ليبيا ، فإن الأطماع الاستعمارية فى القطر الليبى لم تكن مقصورة على إيطاليا ، بل راودت دولاً أوربية أخرى وإن صارت ليبيا فى نهاية الأمر من نصيب إيطاليا بعد أن توصلت الدولة الأخيرة إلى اتفاقيات مع الدول الأوربية الأخرى التى سلمت بحق إيطاليا فى هذه البلاد .

الأطماع البريطانية :

كانت ليبيا موضع اهتمام بريطانيا منذ منتصف القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولعب قناصلها دوراً هاماً فى تاريخ الولاية وخاصة وارنجتون كما حرصت بريطانيا على إقامة قنصليات لها فى أكثر مدن الولاية ، وبفضل هذه القنصليات صار النفوذ البريطانى واضحاً بين القبائل .

ولقد سعت بريطانيا - مثل فرنسا - لتقوية مركزها فى البلاد بشتى الوسائل ، من ذلك أنه فى سنة ١٨٢٤ م عندما رغب يوسف باشا القرمانلى فى تقوية أسطوله تقدم القنصل البريطانى وارنجتون بكل عون ، كما قدم يوسف باشا للمكتشفين والرحالة رسائل توصية إلى زعيم البورنو سنة ١٨٢٣ طالباً منه الاستمرار فى إسداء العون إليهم كما كان يفعل فى السابق .

ولما كانت الدول المجتمعة فى مؤتمر برلين ١٨٨٤ قد رأت أن الادعاءات الاستعمارية فى أفريقيا لا تتحقق إلا بالاحتلال الفعلى فقد ترتب على ذلك حدوث تكالب بين الدول الأوربية على المستعمرات فى أفريقيا ، وصارت السياسة الاستعمارية للدول الأوربية جزءاً هاماً وأساسياً من السياسة الخارجية لهذه الدول ، وكانت مصالح الدول هى التى توجه هذه السياسة .

وعقب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ ثم تونس ١٨٨١ زاد اهتمام بريطانيا بليبيا ، وخصوصاً بعد احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ حيث صارت ليبيا هى الفاصل بين مصر البريطانية وتونس والجزائر الفرنسيتين ، ومن ثم أخذت بريطانيا تفكر وتخطط لمستقبل ليبيا ، ويظهر هذا فى التقرير الذى وضعه الرحالة البريطانى (كوبر) الذى قام برحلة إلى مناطق ليبيا الداخلية فى سنتى ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ متستراً وراء دراسة الآثار ولكنه فى الحقيقة كان يدرس الأوضاع فى القطر الليبى ، وعرج فى تقريره على مستقبل طرابلس فكانت آراؤه وأفكاره تعبيراً صادقاً عن الأطماع البريطانية فيها ، فقد أهاب كوبر ببريطانيا أن تتحرك على أساس أنها لا يمكن أن تسكت إذا ظهر أن فرنسا تفكر فى ابتلاع إقليم جديد على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، ونصح ساسة بلاده بالعمل على جعل طرابلس - عند زوال الصفة التركية عنها - تحت سيطرة دولة لا تصطدم مصالحها مادياً مع مصالح بريطانيا . وطبعاً هذا الشرط لا يتوفر فى فرنسا .

وعلى هذا الأساس سار النشاط البريطانى فى ليبيا فى اتجاهين :

الاتجاه الأول : يتمثل فى النشاط الدبلوماسى المتصل بمستقبل ليبيا. والاتجاه الثانى : ويتمثل فى تدعيم النفوذ البريطانى فى القطر الليبى عن طريق إرسال بعثات كشفية تتستر وراء الهدف العلمى ، من قبل الحكومة البريطانية والهيئات الجغرافية لدراسة خطوط القوافل التى تربط بين طرابلس ووسط أفريقيا . ذلك أنه لما انتشرت المستعمرات

البريطانية فى وسط أفريقيا فكرت بريطانيا فى ربط هذه المستعمرات بميناء طرابلس على البحر المتوسط كأقصر طريق لربط هذه المستعمرات ببريطانيا عبر جبل طارق الذى تسيطر عليه .

وقد ظلت خطوط القوافل هذه فى خدمة الاستعمار البريطانى إلى أن استعمرت فرنسا تمبكتو على ثنية النيجر ، ومدت بريطانيا خطاً حديدياً فى نيجيريا أمكن بواسطته نقل البضائع من داخل نيجيريا إلى سواحلها ففقدت خطوط القوافل أهميتها البالغة .

كما اهتمت بريطانيا بتدعيم العلاقات التجارية بينها وبين القطر الليبى ، فإنه من المعروف أنه حتى قبيل الغزو الإيطالى كانت بريطانيا متفوقة حتى على إيطاليا فى تجارة ليبيا الخارجية ، كما اتخذت الأطماع البريطانية صوراً جديدة تتمثل فى البعثة اليهودية التى أوفدتها المنظمة اليهودية للأراضى إلى ليبيا سنة ١٩٠٨ م لدراسة إمكانيات إنشاء مستعمرات زراعية فى برقة ، وبعد زيارة البعثة لبرقة أصدر مؤتمر المنظمة المنعقد فى لندن سنة ١٩١٠ م قرارات بشأن المشروع منها إنشاء بنك يهودى لشراء الأراضى وقبول اليهود فيها كلاجئين عثمانيين ، والحصول لهم على رخصة فى الزراعة من أجل (جلب السعادة والبركة لتلك البقاع واستثمار رؤوس الأموال اليهودية فى الممالك العثمانية مما يساعد على رفع شأن الدولة العثمانية وزيادة ثروتها) .

إلا أنه يبدو أن الجهود اليهودية لاستعمار برقة لصالح بريطانيا لم تلبث أن توقفت بسبب تغلب وجهة النظر الصهيونية القائلة بالتركيز على فلسطين ثم بسبب الغزو الإيطالى لليبيا .

ويلاحظ أن بريطانيا كانت تركز بوجه خاص على برقة لمجاورتها لمصر لدرجة قيام شائعات فى أثناء الغزو الإيطالى بأن بريطانيا تريد ضم برقة لمصر (كما سيأتى بيانه فى حينه) ومن ثم

عملت بريطانيا على تنمية العلاقات الاقتصادية مع برقة . وقد كشفت مراسلات القنصلية الإيطالية فى بنغازى عن اهتمام المبعوثين الإيطاليين ورصدهم للنشاط البريطانى فى برقة .

الأطماع الفرنسية :

على الرغم من أن فرنسا كانت تهتم بولاية طرابلس الغرب إلا أنه كان اهتماماً هامشياً ، ولذلك لم تتبع خطة ثابتة ، ولكنها أخذت الأمر بمزيد من الجدية منذ احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ م حيث تقدمت فى السنة ذاتها ببعض المطالب إلى يوسف باشا القرمانلى منها الامتناع عن مطالبة الأوربيين بأية مطالب ، والامتناع عن تقوية أسطوله كما طالبت بأن تكون لها حقوق الدولة الأفضل رعاية ، وقبل الباشا مطالب فرنسا .

ومنذ أن احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م ثم تونس سنة ١٨٨١ م وهم يولون ولاية طرابلس الغرب اهتماماً خاصاً مرسوماً على ضوء سياستهم التوسعية الاستعمارية فى ذلك الوقت ورغبتهم فى تخطيط الحدود بين تونس والجزائر من جهة وطرابلس الغرب من جهة أخرى بما يتفق والمصالح الفرنسية مع توفير الأمن للوجود الفرنسى فى تونس والجزائر وإتاحة الفرصة لفرنسا لمد نفوذها عبر الصحراء حتى السودان الأوسط ، ولذلك كانت فرنسا تتطلع للسيطرة على فزان بل وفكرت فى السيطرة الكاملة على طرابلس الغرب ، فعملت على تثبيت نفوذها فى عاصمة ولاية طرابلس بإقامة منشآت تنصيرية ، وأهمها مدرسة للذكور وأخرى للإناث ومستشفى ، علاوة على منشآت مماثلة فى بنغازى ، كما سيطرت على بعض الشركات التى تؤدى خدمات حديثة ، فكانت إدارة فنار طرابلس فرنسية وكانت هناك إدارة بريد فرنسية ، كما سعت فى منطقة الحدود التونسية الطرابلسية إلى ضم واحة " عدامس " لما لها من أهمية استراتيجية وتجارية إلى تونس .

اهتمام ألمانيا :

شجع انتصار ألمانيا على فرنسا سنة ١٨٧٠ م الكثيرين على الاعتقاد بأن ألمانيا لا بد أن تتقدم نحو ليبيا ، يدل على ذلك أن عدداً من الرحالة الألمان أخذوا يترددون على تلك البلاد مثل بارت وفوجيل وملتزان ونخيتجال ورولفس ، ولكن يبدو أن التقارب بين ألمانيا وإيطاليا أدى فى النهاية إلى أن تصرف ألمانيا نظرها عن طرابلس الغرب التى كانت تتطلع إليها حليفتها إيطاليا .

الاهتمام الأمريكى :

فكر فيدال – القنصل الأمريكى فى طرابلس سنة ١٨٧٥ م فى إمكانية الحصول على ميناء فى ليبيا يكون قاعدة للأسطول الأمريكى ، وقد وقع اختياره على طبرق لهذا الغرض ، إلا أن الأمر لم يتجاوز التفكير خصوصاً وأن فيدال نقل فى السنة التالية .

الأطماع الإيطالية :

بعد أن حققت إيطاليا وحدتها تحت زعامة بيت سافوى سنة ١٨٧٠ م سعت لكى تتخذ لنفسها (مكاناً تحت الشمس) بالنزول إلى ميدان الاستعمار ومشاركة الدول الأخرى فى تكوين إمبراطورية استعمارية فى أفريقيا ، تلك القارة التى أخذت الدول الأوربية – فى القرن التاسع عشر وفى الربع الأخير منه على وجه الخصوص – تسعى من أجل الاستحواذ على أقاليمها ، خصوصاً وأنه كانت هناك ظروف تحيط بالمملكة الإيطالية وتدفعها إلى النزول إلى ميدان الاستعمار لتحصل على نصيبها من المستعمرات ، ومن هذه الظروف تزايد عدد سكانها باطراد وعجز الأراضى الصالحة للزراعة عن استيعابهم . وحاجة الصناعة الإيطالية الناشئة إلى مقوماتها الأساسية من مواد خام وأسواق . ورغبة الإيطاليين فى استخدام رؤوس أموالهم فى استثمار موارد البلاد التى ينزحون إليها يضاف إلى ذلك أن جهاد

إيطاليا من أجل التحرير والوحدة السياسية تكلف نفقات باهظة وقع كاهلها على أهل الجنوب على وجه الخصوص مما أدى إلى انخفاض مستوى المعيشة فى شتى الجهات .

ومن ثم ارتفعت فى مجال السياسة الإيطالية وترددت شعارات تنادى بأن التوسع ضرورة (قومية) لتشغيل الأيدى العاملة وتوفير (مكان تحت الشمس) للشعب الإيطالى واستعادة مجد روما التليد ، واعتقد الاستعماريون الإيطاليون أن التوسع الاستعمارى سيكون عاملاً أساسياً فى حل المشاكل المستعصية فى إيطاليا وفى مقدمتها الاقتصاد والبطالة ، وثمة أمر على جانب كبير من الأهمية فى دفع الإيطاليين نحو الاستعمار ألا وهو الشعور بالنقص الذى نشأ بين الإيطاليين من مدة طويلة نتيجة عجزهم عن تحقيق شئ من التوسع فى الوقت الذى تسابقت فيه الدول الغربية العظيمة إلى امتلاك المستعمرات فى أنحاء المعمورة وتكوين إمبراطوريات استعمارية شاسعة بينما أفلتت من أيدى الإيطاليين فرص عديدة جعلتهم يشعرون بأنهم لا يزالون فى مصاف الدول الصغيرة . فكان لا بد من القضاء على هذا الشعور .

ولما كان من المتعذر على الأمم أن تعزو أفعالها إلى الشعور بمركب نقص كان لا بد أن يبحث الإيطاليون عن أسباب أخرى وذرائع تفسر وتبرر عملهم العدوانى أمام العالم كما سنرى .

ومن الفرص التى ضاعت على الإيطاليين أنه فى يناير سنة ١٨٧١ م عندما تعكرت العلاقات بين الحكومة الإيطالية فى فلورنسا (العاصمة وقتئذ بعد تورين وقبل روما) وبين باى تونس ، واستعد الأسطول الإيطالى لمغادرة سبيتزيا يحمل جنوداً لإنزالهم فى تونس أسرع الوزير الفرنسى يشرح للسلطات الإيطالية تحرج مركز الفرنسيين فى أفريقيا الشمالية بسبب الاضطرابات القائمة فى الجزائر وتخشى فرنسا إذا أصرت إيطاليا على إرسال حملتها إلى تونس أن يتسع عليها الخرق فى الجزائر فى وقت كانت لا تزال قواتها مشغولة

بالدفاع الأهلى فى داخل فرنسا ذاتها ، فقرر الإيطاليون العدول عن هذا الغزو (إلى جانب خوف الإيطاليين من الأسطول العثمانى) لذلك كان شعور الإيطاليين بالخيبة عظيماً عندما وجدوا فرنسا تحتل تونس سنة ١٨٨١ م من غير أن تحرك بريطانيا أو ألمانيا ساكناً ، وكانت دهشة الإيطاليين كبيرة لأنهم ما كانوا يعلمون أن تونس كانت الثمن الذى نالته فرنسا فى نظير موافقتها على استيلاء إنجلترا على قبرص .

وبرز من الاستعماريين الإيطاليين ثلاثة هم : كرسبى ، جيوليتى ، الجنرال بلو الذين كانوا دعاة حرب حتى أن الصحف الإيطالية أطلقت عليهم لقب (فرسان الاستعمار الثلاثة) .

وعندما تطلع الاستعماريون الإيطاليون إلى الاستعمار فى أفريقيا تطلعوا إلى الساحل الشمالى للقارة بوجه عام وإلى تونس بوجه خاص التى هاجر إليها الآلاف من الإيطاليين لكى تتخذ منها إيطاليا قاعدة للتوسع فى الشمال الأفريقى ، فقد كانت تونس تتمتع بميزات عديدة تجعل منها مستعمرة مناسبة مثل خصوبة أرضها وقربها الشديد من شواطئ صقلية بحيث يمكن لإيطاليا إذا استحوذت عليها أن تغلق البحر عند خاصرته .

ولكن إيطاليا لم تكن الدولة الأوربية الوحيدة التى تطلعت لامتلاك تونس ، فقد تطلعت إليها أيضاً فرنسا التى سيطرت منذ سنة ١٨٣٠ على القطر المجاور لتونس ألا وهو الجزائر ، وصار يهمها أن يمتد نفوذها على بقية الشمال الأفريقى ، فتبتلع أقطاره قطراً قطراً ، وقد صار المستشار الألمانى بسمارك يشجع فرنسا فى الخفاء على تملك تونس لإحداث وقيعة بين الجارتين الكاثوليكيتين فرنسا وإيطاليا ، وبذلك يحول دون تحالفهما فتبقى فرنسا فى عزلتها التى كانت ركناً أساسياً فى سياسة بسمارك الخارجية ، وفى الوقت نفسه يمهد السبيل لكسب إيطاليا إلى جانب التحالف الثنائى ، هذا بالإضافة إلى شغل فرنسا خارج أوربا

بمشروع يستنفد طاقاتها فلا يكون لديها فرصة للتفكير فى استرداد أراضيها السليبة منذ حرب السبعين ألا وهو الالزاس واللورين .

ولذلك فإنه عندما أقدمت فرنسا على احتلال تونس سنة ١٨٨١ (معاهدة باردو) بموافقة بعض الدول الكبرى أو بغض نظرها على الأقل أصيب الاستعماريون الإيطاليون بصدمة كبرى ، وطفق كرسبى فى سنة ١٨٨٣ يلوم فرنسا لاعتدائها على حقوق أختها اللاتينية فى تونس ، كما أدى نزول القوات الفرنسية فى تونس إلى هياج الرأى العام الإيطالى الذى أخذ يتساءل عما إذا كان هناك ما يمنع فرنسا -بعد ذلك- من أن تبتلع طرابلس أيضاً بل وأن تنزل قواتها على شاطئ شبه الجزيرة الإيطالية .

وكان من نتيجة ذلك انضمام إيطاليا إلى التحالف الثنائى (ألمانيا والنمسا) سنة ١٨٧٩ ، فصار ثلاثياً منذ سنة ١٨٨٢ فقد كانت المملكة الإيطالية الوليدة فى حاجة ماسة إلى مساندة أوربية قوية لمواجهة مشاكلها الداخلية والخارجية .

ولانضمام إيطاليا إلى النمسا عدوتها القديمة التاريخية فى محالفة مغزى كبير فهو يؤذن ببداية سياسة المحالفات التى صارت إيطاليا تعتمد عليها فى دبلوماسيتها كما أن دخول إيطاليا فى محالفة مع دولة النمسا لم تكن لها معها روابط صداقة قديمة بل ولا تزال بينهما بعض أسباب النزاع الذى كان من شأنه أن يجعل هذه المحالفة غير مستقرة ومعرضة للانهيار فى أى وقت (وسنرى ذلك فى تتابع العلاقات الدولية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى وانضمام إيطاليا إلى الحلفاء ذو الوفاق الثلاثى وتخليها عن ارتباطها بدول التحالف) كما يدل على أن هدف إيطاليا من انضمامها إلى المحالفة الثنائية هو رغبتها فى استخدام هذه المحالفة فى رفع مركزها وشأنها بين الدول والضغط على فرنسا وهى الدولة التى تقف حجر عثرة فى طريق توسعها فى شمال أفريقيا لأن هذه المحالفة كانت موجهة أصلاً ضد فرنسا .

وعندئذ تحولت إيطاليا بأنظارها إلى طرابلس الغرب للسيطرة عليها كبديل لتونس . وفى الوقت نفسه تطلعت أنظارها بفكرة التوسع الاستعمارى فى شرق أفريقية خصوصاً وأن الظروف كانت معاونة لإيطاليا لكى ترث الممتلكات المصرية فى تلك الأصقاع .

ذلك أن تصفية الثورة العرابية وخضوع مصر للاحتلال البريطانى . وهيمنة سلطات الاحتلال على شئون مصر الداخلية والخارجية ، وازدياد أهمية البحر الأحمر بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فى وقت انهارت فيه الصداقة البريطانية الفرنسية وتعرض أمن البحر الأحمر للتهديد نتيجة انتشار الثورة المهدية فى السودان الشرقى ، وتحسن العلاقات البريطانية الإيطالية ، كل هذا جعل من الطبيعى أن تجد بريطانيا فى إيطاليا القوة أو الدولة التى يمكن أن توازن فرنسا فى منطقة البحر الأحمر ، ولذلك أخذت بريطانيا تشجع إيطاليا على توسيع نطاق ممتلكاتها على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر والتى كانت فى ذلك الوقت محدودة لا تتجاوز ميناء عصب .

إلا أن تطلع إيطاليا إلى شرق أفريقيا وانشغالها فى تأسيس مستعمرات لها هناك فى الفترة التالية لم يجعل طرابلس الغرب تغيب عن تفكيرها فكانت الحكومة الإيطالية تتصرف فى كل ما يتعلق بهذه الولاية العثمانية فى العلاقات الدولية وكان تبعيتها لها فى المستقبل أمر مفروغ منه ولذلك كانت تأخذها الغيرة إذا اقتربت أطماع الدول الأوربية الأخرى منها لأن ذلك من شأنه أن يجعل طرابلس تضيع من الدولة الأوربية التى سوف تتملكها عاجلاً أو آجلاً ألا وهى إيطاليا .

بل أن مانشينى وزير الخارجية الإيطالية صار يسعى لتحقيق ضالته المنشودة " بالتقاط مفاتيح البحر المتوسط فى البحر الأحمر " وذلك عن طريق :

(أ) بسط نفوذ إيطاليا على سواحل البحر الأحمر الأفريقية بالاتفاق مع بريطانيا .

(ب) ثم بالتوغل الإيطالى فى السودان المصرى غرباً إلى دارفور حتى يصل النفوذ الإيطالى تدريجياً باتجاهه شمالاً إلى سواحل طرابلس الغرب .

(ج) وبذا تستطيع إيطاليا أن تبسط سيطرتها على سواحل البحر المتوسط الجنوبية وهو الهدف الذى كان مانشينى يسعى إلى تحقيقه أولاً وآخراً كما يتحقق من قوله " إن مفاتيح البحر المتوسط إنما توجد فى البحر الأحمر " ومعنى ذلك أن التقاط هذه المفاتيح يكون عن طريق الزحف من سواحل البحر الأحمر الأفريقية والسودان ودارفور إلى طرابلس الغرب .

وكان هذا هو رأى معظم الساسة الإيطاليين فى ذلك الوقت وعلى رأسهم فرنشسكو كرسبى نفسه منشئ الإمبراطورية الإيطالية الأفريقية فى القرن التاسع عشر حيث كانوا يؤمنون بأن سواحل البحر المتوسط هى المكان الطبيعى لبسط النفوذ الإيطالى ، فإذا تعذر البدء ببسط النفوذ الإيطالى فى شمال أفريقية لسبب أو آخر فإنه يمكن الوصول إلى هذه الغاية بتأسيس هذا النفوذ على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، ومما ينهض دليلاً على الاعتقاد السائد وقتئذ بأن أفريقيا الشمالية هى المكان الطبيعى للاستعمار الإيطالى ، إن كرسبى كان فى مقدمة الساسة الإيطاليين الذين رحبوا بالتعاون مع بريطانيا فى قمع الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، ربما لكى يستطيع فيما بعد أن يساوم بريطانيا فى أمور شمال أفريقيا .

إلا أن هزيمة إيطاليا المروعة على يد الأحباش فى واقعة عدوه سنة ١٨٩٦ جعل إيطاليا تتخلى مؤقتاً عن استكمال أحلامها فى إمبراطورية واسعة فى شرق أفريقية مكتفية بالصومال وإرتريا لكى توجه أنظارها وتركزها على الشمال الأفريقى وعلى طرابلس الغرب بالذات .

ثم أخذت إيطاليا تسعى بالطرق الدبلوماسية وتهتم بالاستعدادات العسكرية .

وقد حصلت إيطاليا على تعهد ألمانى بعدم التدخل فى حالة ضمها لليبيا ، كما تبع ذلك اعتراف من النمسا بالموافقة على احتلال إيطاليا لليبيا ، واعترفت فرنسا بوضع متميز لإيطاليا فى طرابلس الغرب ، وتعهدت روسيا بالنظر بعين العطف للمصالح الإيطالية فى طرابلس مقابل أن تنظر إيطاليا بعطف لمصالح روسيا فى المضايق .

وأخذ الإيطاليون ينتشرون فى ليبيا بصور شتى بينما أخذ الإعلام الإيطالى يهيى الشعب للقيام بعمل عسكرى لضمها ودارت عمليات عسكرية ووجهت بمقاومة من الشعب الليبى وباستنكار من الدولة العثمانية وانتهى إلى إعلان ملك إيطاليا فى ٥ نوفمبر ١٩١١ مرسوماً ملكياً بوضع طرابلس وبرقة تحت السيطرة التامة والمطلقة لمملكة إيطاليا .



٢ - الاستعمار الصهيوني
ماضيه وحاضره ومستقبله

إن الاستعمار الصهيونى - الذى تمكن أخيراً من إقامة دولة صهيونية فى قلب الوطن العربى - هو نوع جديد من الاستعمار يختلف كل الاختلاف عن الأنواع المألوفة المعروفة . فقد تعودنا أن يقوم الاستعمار بواسطة دولة قوية تسندها الجيوش وا لأساطيل ، أما الصهيونيون فقد اعتمدوا أولاً على جيوش وأساطيل غيرهم قبل أن تكون لهم قوة تستحق الذكر . وأمكنهم أن يستخدموا الاستعمار البريطانى وأن يسخروه لقضاء مآربهم ، حتى إذا حصلوا على أقصى مرادهم منه تحولوا إلى تسخير النفوذ الأمريكى واستغلاله فنجحوا إلى أبعد غايات النجاح .

وقد أصبح الاستعمار الصهيونى أكبر خطر يتهدد العالم العربى لذلك كان جديراً بنا أن ننعم الفكر فى أمره وأن ندرسه ونطيل دراسته .

من أول الصيحات الصهيونية التى سجلها التاريخ كتاب أرسله يهودى فرنسى فى عام ١٧٩٨ (وقت حملة بونابرت على الشرق الأوسط) ناشد فيه أبناء دينه أن يؤلفوا مجلساً أعلى مقره باريس تمثل فيه فروع الطائفة فى جميع أنحاء العالم على أن يرفع هذا المجلس طلباً إلى الحكومة الفرنسية بإرجاع جميع اليهود إلى سماء وطنهم ، ثم وصف هذا الوطن بالعبارة الآتية :

" وهذا القطر الذى نريد أن نحتله يشتمل على مصر السفلى (الوجه البحرى) ويمتد شرقاً إلى الجهات المتاخمة ، وينتهى بخط يمتد من بلدة عكا إلى البحر الميت ، وموقع هذا القطر أنفع المواقع فى العالم .

وسيمكننا من السيطرة على ملاحة البحر الأحمر ، وعلى تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشرقية والجنوبية ، وكذلك سيسهل لنا تجارة إيران وآسيا نظراً لقربه من مدينتى دمشق وحلب ، كما يسهل الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط بالبلاد وممالك أوربا ، وهكذا تكون بلادنا بفضل موقعها الممتاز فى قلب العالم المستودع الأكبر للمنتجات العالمية الثمينة " .

ثم يوضح الكاتب بعد ذلك المزايا التى تجنيها حكومة فرنسا من احتلال اليهود لذلك القطر والثمن الذى يجب أن يدفع للباب العالى فى مقابل الاستيلاء عليه .

هذه الصيحة المبكرة لم يترتب عليها إجراء عملى ، وإنما المهم فى هذا النداء تحديده للقطر الذى يريده هذا الصهيونى المتقدم ، وأنه لا يشتمل على فلسطين وحدها بل على النصف الشمالى من القطر المصرى أيضاً . من المهم أن نذكر ذلك لأن أكثر الصهيونيين فى وقتنا هذا لا يشيرون إلى مصر ، وإن كانت هناك عناصر صهيونية متطرفة لا تزال تصف الوطن الصهيونى بأنه يمتد من وادى النيل إلى وادى الفرات .

بدأت اللجنة الصهيونية أعمال المنظمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، واتجهت فى جهودها جهتين :

الأولى : الجماعة التى كانت تحركها نزعة دينية ثقافية وغرضها أن ترى فى فلسطين مركزاً محدوداً تقام فيه الشعائر الدينية اليهودية بكامل الحرية وتحيا فيه اللغة العبرية وتنشأ فيه مؤسسات ثقافية واجتماعية يهودية مع تمتع اليهود بكافة الحقوق التى لجميع سكان فلسطين دون أن تكون لهم أية ميزة سياسية أو لأية نزعة استقلالية .

أما الطائفة **الثانية** : التى لم تلبث أن طغت على الأولى فهى الصهيونية السياسية التى ترمى إلى إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين

يحشد فيها المهاجرون من الأقطار الأوربية التى يكثر فيها اليهود مثل روسيا وبولندا ، وتجمع لها الأموال من سراة اليهود فى جميع أنحاء العالم ، هذه الطائفة التى أخذ أمرها يستفحل فى نهاية القرن الماضى لم تلبث أن نظمت تنظيماً دقيقاً ، وأصبح لها هيئات فى كثير من الأقطار الأوربية والأمريكية ومؤتمر صهيونى عام يعقد مرة فى كل عامين . وقد عقد لأول مرة فى مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ .

فى ذلك الوقت كان بعض الأغنياء من اليهود قد ساعد فعلاً على إنشاء عدد صغير من المستعمرات الصهيونية التى تشتغل بالزراعة ، ولكن مثل هذه المستعمرات لم تكن تطفئ غليل هذه الصهيونية . ولذلك تقدم رؤساؤها إلى السلطان عبد الحميد يلتمسون منه أن يسمح بإنشاء " جمهورية يهودية " فى فلسطين فى مقابل إعانات مالية ضخمة . فرفض السلطان ، فأعادوا الكرة فأعاد الرفض ، ولم يكتف بالرفض بل أمر أن يسمح لجماعات صغيرة من اليهود إذا شاءت أن تنزل فى أية بقعة من الدول العثمانية ما عدا فلسطين .

أمام هذا الرفض الحازم حاول الصهيونيون أن يسمح لهم باحتلال قبرص فرفضت الحكومة البريطانية طلبهم ثم طلبوا أن يسمح لهم باحتلال منطقة العريش من أرض مصر - وهى على كل حال متاخمة لفلسطين - فأذنت لهم السلطات أن يرسلوا بعثة صهيونية إلى العريش للبحث والتنقيب ، فانتهت تلك البعثة إلى أن الإقليم صالح للاستعمار على شرط أن يسمح لهم بجلب الماء من نهر النيل ، فأبى اللورد كرومر الموافقة على هذا المشروع فأهمل . من المهم أن نذكر هذا الحادث التاريخى لكى ندرك أن أرض مصر لم تكن فى يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير الصهيونى وأن حكومة مصر قد بلغ بها التساهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد العريش وجزيرة سيناء .

اكتفى الصهيونيون فى السنوات التالية بتقوية المستعمرات التى سبق إنشاؤها فى فلسطين وبتوحيد صفوف أتباعهم فى مختلف الأقطار وترقب أول فرصة سانحة لتحقيق أطماعهم . وقد أتيحت لهم هذه الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى . ومن الممكن أن نعتبر هذه الحرب بمثابة نهاية المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيونى ، ولذلك يحسن بنا أن نقف قليلاً لكى ننظر إلى ما تم فى هذه المرحلة البدائية .

أصبح عدد الصهيونيين فى فلسطين ٩٠,٠٠٠ ومجموع السكان ٨٠٠,٠٠٠ ، أى أنهم زادوا على عشر السكان ، وكانوا يؤلفون جماعة منظمة ذات نزعة انفصالية تسودها عاطفة التعصب القومى ، وقد وصفهم حاكم يافا التركى بأنهم يحاولون أن ينفصلوا عن سائر السكان ولا يحتكمون إلا إلى المحاكم اليهودية ، ويستخدمون أوراقا مالية خاصة بهم ولهم شارات تدل على الاستقلال السياسى أخصها العلم ذو اللون الأزرق والأبيض ويمعنون فى شراء الأرض من العرب ، وفى إحلال العمال اليهود محل العرب ويزدرون السلطة العثمانية واللغة التركية ، ويذكون فى مدارسهم روح التعصب لليهود ضد الأتراك ، وقد جعلوا من مستعمراتهم مراكز مستقلة لها حاكمها وقوات الدفاع الخاصة بها .

من أجل ذلك اضطر جمال باشا إلى استبعاد عدد من أكثرهم تعصبا وتطرفا واضطرهم إلى الانتقال إلى جهات أخرى من الدولة العثمانية ، ومع هذا فإن الإجراءات التى اتخذها لم تكن صارمة أو قاسية بفضل تدخل ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فرأت الهيئة الصهيونية العالمية أن تتبع سياسة الحياد الرسمى ، ولكن فروعها فى ألمانيا من جهة وفى بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى لم تكف عن السعى والجد فلم تلق توفيقا يستحق الذكر فى الأولى . ولكنها نجحت نجاحا عظيما فى بريطانيا . وأراد الصهيونيون فى بريطانيا أن يحققوا برنامجهم الكامل

بإنشاء دولة في فلسطين ، وعارضهم معارضة شديدة يهود إنجلترا فترتب على ذلك تلك السياسة الوسط التى تضمنها وعد بلفور والتى قالت بأن: " بريطانيا تنظر بعين الرضا إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، على ألا يكون فى هذا ما يمس حقوق اليهود فى سائر الأقطار أو حقوق الجماعات غير اليهودية التى تعيش فى الأرض المقدسة " .

وقد اندفعت بريطانيا فى هذه السياسة لأنها وجدت فيها وسيلة لتثبيت أقدامها فى أرض تزيد فى مقدرتها على الدفاع عن مواصلاتها الإمبراطورية عامة وقناة السويس بوجه خاص عدا ما تجنيه من المكانة السامية والمنزلة الرفيعة إذ تصبح هى الدولة المهيمنة على البلاد المقدسة ، التى نشأ فيها الدين المسيحى بعد أن حاول الصليبيون عبثاً انتزاعها من أيدى سكانها .

قبل الصهيونيون – مؤقتاً – تصريح بلفور وبذلوا مجهوداً جباراً حتى صيغت وثيقة الانتداب على فلسطين صيغة تساعدهم على تحقيق أغراضهم وتذهب فى تفسير ذلك التصريح إلى أبعدى مدى يلائمهم ، فضمنت لهم أن تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتيسير الهجرة وتشجيعها وتمكين المهاجرين من شراء الأرض واستثمارها ، واحتلالها بواسطة جماعات متراصة متلاصقة ومن إقامة المشروعات لاستغلال الموارد الطبيعية فى مختلف أنحائها . وفوق هذا كله اعترفت وثيقة الانتداب بحق الهيئات الصهيونية فى أن تنشئ وكالة يهودية لكى " تتعاون " مع حكومة فلسطين من أجل تنفيذ جميع شروط الانتداب ، فلم تلبث هذه الوكالة أن أضحت حكومة داخل الحكومة .

وبعد أن تم للصهيونيين هذا النصر الباهر فى وثيقة الانتداب ، أحرزوا نصراً أخر لا يقل خطراً بأن اختارت حكومة الانتداب يهودياً صميماً وصهيونياً عريقاً ، وهو السير هربرت صموئيل ، لكى يكون الحاكم الأول على فلسطين فاستطاع الاستعمار الصهيونى فى هذه

المرحلة الثانية – فى الفترة بين الحربين العالميتين – أن يثبت أركانه على قواعد متينة وأسس ضخمة ، وأن يزيد عدد المستعمرين حتى ارتقى من نحو ٥٠,٠٠٠ فى عام ١٩٢٠ حتى بلغ ٦٦٠,٠٠٠ فى عام ١٩٤٠ وازداد العرب فى أثناء هذه الفترة زيادة طبيعية حتى صار عددهم يقارب المليون .

ولكن هذه المقارنة العدية لا تحمل صورة صحيحة عن الاستعمار الصهيونى فى هذه الفترة ، فإن اليهود لم يرضوا بمجرد زيادة العدد بل أنشأوا مدناً منها تل أبيب أكبر مدن فلسطين . وأصبحت لهم الكثرة العددية فى بيت المقدس واستولوا على أراض واسعة خصبة مثل مرج ابن عامر وأخرجوا المزارعين والفلاحين العرب منها وأنشأوا فى جوار حيفا منطقة صناعية هائلة غمرت بلاد الشرق الأوسط بمنتجاتها المتنوعة ، وفى هذه المصانع لا يستخدم غير عمال صهيونيين . وأمكنهم كذلك أن يحصلوا على حق احتكار كثير من المنافع العامة مثل الكهرباء ، كما أصبحوا هم العملاء لجميع الشركات الأجنبية التى ترسل منتجاتها إلى فلسطين وبعض جهات الشرق الأوسط ، وبذلك صارت المؤسسات الصهيونية هى الأداة الرئيسية للتجارة فى فلسطين وما يجاورها من الأقطار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الصهيونيون أن يحملوا حكومة فلسطين على السماح لهم بأن يتسلحوا من أجل " الدفاع عن النفس " فلم يكتف الصهيونيون بهذا الحق بل أخذوا يستوردون الخائر خفية ولم يكتشف هذا الأمر إلا بطريق المصادفة ، ففى منتصف أكتوبر سنة ١٩٣٥ وصلت من الخارج صناديق من " الأسمنت " إلى تل أبيب انكسر واحد منها فتبين لعمال الجمارك أن صناديق الأسمنت تشمل على رسالة من المسدسات الأوتوماتيكية ومئات الآلاف من الرصاصات وأظهر التحقيق فيما بعد أن هذه لم تكن سوى دفعة واحدة سبقتها دفعات عديدة وهذه الدفعات لم تكتشف ولم تصادر .

ومن المهم أن يدرك القارئ أن تهريب الأسلحة هذا يرجع إلى ما قبل عام ١٩٣٥ . وفى الوقت الذى كان النازيون يضطهدون اليهود لم يحاول الصهيونيون مقاومة النازيين بل وجهوا كل جهودهم نحو تسليح وتدريب الشباب الصهيونى من أجل الاستيلاء على فلسطين .

ورأت بريطانيا – بعد لأى – أن الاستعمار الصهيونى يوشك أن يكون خطراً عليها ، وبدلاً من أن تكون السياسة الصهيونية وسيلة لتثبيت أقدام بريطانيا فى فلسطين رأت نفسها تتخذ أداة لتنفيذ الأطماع الصهيونية ؛ وأدركت أن الخطر على النفوذ البريطانى لا يقل عن الخطر الذى يهدد الشعب العربى ، ولذلك سنت سياسة جديدة سمتها " الكتاب الأبيض " الذى صدر فى ربيع عام ١٩٣٩ والذى تقرر بمقتضاه الحد من الهجرة الصهيونية ووقف بيع الأراضى لليهود فى جزء كبير من فلسطين واتخاذ بعض الإجراءات نحو إعداد البلاد للحكم الذاتى ، وقد نفذت شروط هذا الكتاب فى أثناء الحرب ثم خولفت صراحة بعد انتهائها مباشرة .

وهكذا تنتهى المرحلة الثانية من الاستعمار الصهيونى وتبدأ المرحلة الثالثة ، فقد رأى الصهيونيون أن الحرب العالمية الثانية ستتيح لهم فرصة عظيمة لتحقق أطماعهم فرسموا لذلك سياسة صريحة استغلوا بها ظروف الحرب استغلالاً قوياً ، فأقبلوا على التطوع آلافا مؤلفة ، لا حباً فى الحلفاء ولا رغبة فى هزيمة ألمانيا بل لكى يكتسبوا المران والخبرة ويوفروا الأسلحة والذخائر ، للمرحلة الثالثة من جهودهم الاستعمارية . لم يشترك هؤلاء اليهود فى حروب تستحق الذكر على الرغم من كل ما يذيعونه وينشرونه من الأكاذيب ، ولكنهم من غير شك اكتسبوا دراية فنية عظيمة – سواء فى ذلك رجالهم أو نساؤهم – أتاحت لهم أعظم جيش مسلح مدرب فى الشرق الأوسط كله ، وقد أمكنهم أن يصنعوا بعض الذخائر والأسلحة الحربية إلى جانب المهربات الكبيرة التى كانت ترد إليهم من أمريكا وأوربا

وساعدهم على التهريب أن كان لهم وهم أعضاء فى الجيش البريطانى كامل الحرية أن يتنقلوا بسيارات ذلك الجيش عبر الحدود دون تفتيش .

وأمكن للصهيونيين فى الوقت ذاته أن يجمعوا ثروة هائلة أكثرها من الممولين اليهود فى أمريكا وبعشها مع الأسف من الاتجار فى البلاد العربية نفسها ، وأخذ دعاتهم يبذلون همة فائقة للتأثير فى نواب أمريكا وشيوخها وساستها وفى بعض الساسة البريطانيين أنفسهم . وجعلوا ينادون صراحة بأنهم لا يريدون مجرد وطن قومى ، بل دولة يهودية فى فلسطين ، وأنهم سيدخلونها عنوة إذا لم يسمح لهم بأن يدخلوها بالوسائل القانونية . بل لقد ذهب دعاتهم إلى أبعد من هذا بأن أعلنوا أن من برنامجهم أن يجلوا العرب جميعاً من فلسطين فى مقابل تعويض مالى حتى يمكن إنشاء جمهورية صهيونية خالية من كل عنصر غير صهيونى .

وقد رأى الصهيونيون حتى فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة أن بريطانيا لن تمكنهم من التوسع الاستعمارى فى فلسطين إلى أبعد من المدى الذى وصلوا إليه ؛ لأن ازدياد النفوذ الصهيونى أضعف النفوذ البريطانى أو بعبارة أخرى : أن الاستعمار الصهيونى لفلسطين أصبح خطراً على الاستعمار البريطانى فى هذا الركن الخطير من العالم .

وقد سبق لنا فى الفصل الثالث أن أوضحنا كيف خلقت بريطانيا المشكلة الصهيونية خلقاً لكى تستطيع أن تقيم نفسها حامية لمصالح اليهود ضد عدوان العرب ولمصالح العرب ضد عدوان اليهود ، فلما أصبح النفوذ الصهيونى من القوة بحيث بات يهزأ بالسلطات البريطانية فى فلسطين ، بذل الإنجليز أثناء الحرب العالمية بعض الجهود للحد من العدوان الصهيونى .

غير أن الزمام لم يلبث أن أفلت من أيدى البريطانيين ، وأخذ الصهيونيون يجاهرون بعدائهم للدولة المهيمنة على شئون فلسطين .

وبلغت بهم الجرأة أن أرسلوا من فلسطين إلى مصر ثلاثة من رجالهم فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فنزلوا القاهرة وقتلوا وزيراً بريطانياً عظيماً وهو اللورد موين فى عقر داره فى رائعة النهار .

وقد كشفت هذه الجريمة عن عجز البريطانيين وضعفهم أمام العدوان الصهيونى ، فإنهم لم يظهروا تلك العقلية المخرفة التى أظهروها مثلاً فى مقتل السردار سنة ١٩٢٤ ، وقد قامت السلطات المصرية بمحاكمة الجناة وإعدامهم ، أما السلطات البريطانية فى فلسطين فلم تحرك ساكناً .

وظهر عجز البريطانيين واستخذاؤهم أمام العدوان الصهيونى فى صورة أوضح بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة ، فأخذ الصهيونيون يغيرون على المعسكرات البريطانية وثكنات الشرطة ويختطفون منها الأسلحة ، وجعلوا ينسفون الدور والمكاتب البريطانية ، ويفتكون بالأرواح جهرة ، وكانوا يقبضون على الجنود والضباط البريطانيين ويجلدونهم بالسياط فى وضح النهار ، وكان لهم ثأر عند أحد الضباط البريطانيين فتعقبوه إلى بلدته فى بريطانيا وفتكوا به هناك .

وقد رسم الصهيونيون خطتهم للاستيلاء على فلسطين فقسموها إلى مرحلتين :

الأولى : إجلاء البريطانيين عن فلسطين ، والثانية : إجلاء العرب عنها بعد ذلك .

ولم يبدأوا المرحلة الثانية إلا بعد أن أتموا المرحلة الأولى ، مع إدراكهم التام بأن العرب هم فى الحقيقة العدو الأول .

وقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن ضعف الإنجليز فى الميدان الدولى ، فأصبحوا دولة من المرتبة الثانية ، تسير فى ركاب الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد عليها كل الاعتماد , ولعل

الصهيونيون كانوا يتوقعون ذلك فأعدوا للأمر عدته . وفى أمريكا ستة ملايين من اليهود لهم نفوذ واسع وسلطان كبير ، فصناعة السينما كلها فى أيديهم ، وكثير من شركات الإذاعة والصحافة خاضعة لهم ، وهناك صناعات أخرى عديدة مثل صناعة ملابس السيدات يسيطر عليها اليهود سيطرة تامة . ولذلك كان لهم فى أمريكا نفوذ أكبر مما يبدو من نسبتهم العددية لجميع سكان الولايات المتحدة ، فكانت لديهم من وسائل الإغراء ما مكنهم من تسخير كثير من رجال الدولة ، وعلى الأخص رجال البيت الأبيض (أى رئاسة الجمهورية) لقضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم .

وفى أمريكا يتمتع الرئيس الأعلى للدولة بسلطة واسعة توشك أن تكون ديكتاتورية دستورية ، وعلى الأخص في الشئون الخارجية . وقد وجد يهود أمريكا فى الرئيس السابق ترومان أداة طيعة ، لا يرد لهم طلباً ويشكل سياسته طبقاً لما يمليه عليه دعاتهم .

وكان البريطانيون بعد الحرب فى أزمة مالية شديدة والتمسوا من أمريكا قرضاً يقرب من أربعة مليارات من الدولارات ، فمنحوا القرض على شرط أن تكون سياستهم فى فلسطين متجهة إلى تحقيق رغبات الصهيونيين . واشتد الضغط على البريطانيين حتى اضطروا لأن يعلنوا فى أول سنة ١٩٤٧ عزمهم على الجلاء عن فلسطين فى منتصف شهر مايو سنة ١٩٤٨ . وبذلك تم للصهيونيين تحقيق غرضهم الأولى ، ولم يبق إلا الغرض الثانى وهو إخراج العرب من فلسطين .

كان واجب الدول العربية أن تبادر برسم خطتها عندما أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء من فلسطين ، ومن بواعث الأسف أن كثيراً من العرب لم ينظروا نظرة جدية إلى وعد بريطانيا بالجلاء ظناً منهم أن هذا لن يعدو أن يكون من قبيل وعدهم بالجلاء عن مصر . وفاتهم أن هنالك فرقاً كبيراً بين الحالتين ، لأن بريطانيا إذا أخلفت

وعدها مع مصر أو حتى مع الصهيونيين لا تستطيع أن تخلف وعداً قطعنه أمام الأمريكيين .

ومهما يكون من أمر ، فإن الدول العربية لم تبدأ استعدادها لحرب فلسطين إلا عشية جلاء الإنجليز عنها . أما الصهيونيون فقد استعدوا لذلك استعداداً طويلاً ، فألفوا جيشهم الرئيسى المسمى " هجانا " وجيش الصاعقة المسمى " إرجون " . وبلغت قوتهم مجتمعة قرابة مائة ألف جندى وجاءتهم الإمدادات من مختلف الجهات فى أوربا وأمريكا .

ولسنا هنا فى مقام سرد حوادث الحروب الفلسطينية ، وحسبنا أن نذكر أن الصهيونيين أمكنهم أن يؤسسوا دولة سموها " إسرائيل " ، وأخذوا يشجعون المهاجرة إليها من جميع الأقطار ويجبون لها المال بجميع الوسائل ، ويبدون همة فائقة فى توطيد أركانها وتدعيم بنيانها ، ويسيرون على خطة محكمة وسياسة واضحة الأهداف بصورة قلما نرى لها نظيراً فى البلاد العربية ، حيث يسود الشقاق والخلاف وتتعدد النزعات والأهواء فى بعض الأقطار .

وهكذا حقق الاستعمار الصهيونى هدفه الذى رمى إليه ، وأمكنه أن يبلغ مأربه الذى يتمثل فى المرحلة الثالثة وهى إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين ، فهل يقف الاستعمار الصهيونى عند هذا الحد ، أو هناك مرحلة رابعة ؟

إن تاريخ الصهيونية كفيل بأن يوضح لكل ذى عقل أنها لن تقف عند حد . فإن التوراة أشارت إلى وطن يمتد من الفرات إلى النيل ، وهيهات أن تقعد الصهيونية عن السعى لتحقيق هذا الهدف ، ولا شك أن العالم العربى لا يزال مهدداً بكارثة هائلة لم يكن احتلال الإنجليز لقناة السويس بجانبها إلا شيئاً تافهاً .

فإن الاستعمار الصهيونى لا يهدف إلى مجرد التسلط على السكان ، بل يرمى إلى طردهم واغتصاب بلادهم وكثيراً ما نرى فى

كتابات الصهيونيين وأتباعهم ، أن العرب أصلهم من الصحراء ، فيجب أن يعودوا إلى الصحراء ، وهذه الفرية لا يفتأون يرددونها .

أما زعم الصهيونيين بأنهم أصحاب حق فى فلسطين وأنهم من سلالة بنى إسرائيل فهناك الكثير من المصادر التى تناولت هذه القضية بالبحث والدراسة .

وواقع الأمور الآن يشير إلى أن إسرائيل قد أقامت دولتها ويحاول الفلسطينيون - والعرب - استرداد بعض أجزاء مما ضمته إسرائيل ولكن العقبات التى توضع أمامهم كثيرة والحصول على شئ مما تحت يد إسرائيل لا يحتاج إلى حوار سياسى بقدر ما يحتاج إلى قوة عسكرية وأمة عربية واحدة تفرض إرادتها وتسترد حقوقها .

٣- العدوان الثلاثي على مصر

إن العدوان الذى قامت به بريطانيا وفرنسا ، مع الاستعانة بإسرائيل ، حادث غريب فى تاريخ الاستعمار كله ، وهو بوصفه ظاهرة استعمارية يستحق أن نوليه عناية خاصة لاستجلاء حقيقته .

والآن وقد انقضت بضعة أشهر على تحرير بورسعيد وجلاء القوات المعتدية على أرض مصر ، لعل من الممكن أن ننظر إلى ذلك الغزو الفاشل نظرة شاملة ، تتناوله من مبتداه إلى نهايته ، ونتأمل فى الظروف التى سبقته والتى عقبته .

لا شك أن عاصفة من الطغيان كانت تتلبد فى الأفق فى أواخر شهر أكتوبر ١٩٥٦ ، ونستطيع الآن أن ننظر إلى حادث اختطاف الزعماء الجزائريين بأنه علامة تنذر بانفجار هذه العاصفة ، فقد كان هذا الحادث بالغاً أحط مراتب اللؤم والدناءة ، وقد قابله العالم كله بأشد النقد والاستهجان . لم تشذ عن ذلك دولة سوى فرنسا الآثمة وبريطانيا شريكتها ، وإسرائيل حليفتها . وانقسد العالم كله قسمين منذ ذلك اليوم : كثرة عظيمة تستهجن الجريمة وتستنكرها ، وقلة ضئيلة تباهى بارتكاب الإثم والمنكر .

وكان يوم الأحد ٢٨ من أكتوبر الماضى يوم إضراب أعلنته الشعوب العربية احتجاجاً على تلك الخيانة البشعة .... ولم يكن يخطر لها أن جريمة أبشع وخيانة أشنع قد دبرت وتوشك أن تتكشف ... ففى ذلك اليوم أرسلت حكومة واشنطن إنذاراً إلى رعاياها فى مصر وسورية والأردن وإسرائيل بمغادرة البلاد فوراً ، فقد كانت تلك الحكومة تعلم أن إسرائيل تقوم بتعبئة قواتها ، وإن كانت تجهل مبلغ ما وصلت إليه تلك التعبئة كما تجهل أغراضها على وجه الدقة . وقد ظهر بعد قليل أنها كانت تعبئة تامة كاملة تتناول الرجال والنساء والأطفال ، وأنها كانت تجرى فى خفاء شديد ، بحيث كان الأشخاص يدعون بالبرق

أو بالتليفون .. لأن إسرائيل ، وهى تبيت العدوان ، قد أعدت السكان لمثل هذه الحالات منذ شهور وأعوام ...

ومن البدائه التى لا ينكرها أحد أن الذى يبيت العدوان له ميزة على الآمن المطمئن القابع فى داره ؛ كما أن اللص والمغتال لهما ميزة التدبير والاستعداد والمفاجأة ، ولكن لو أن الأمر مجرد عدوان إسرائيل على مصر لتلاشت هذه الميزة بعد يوم أو بعض يوم ، لأن مصر لم تكن نائمة ولا غافلة ، ولكن العدوان الصهيونى لم يكن حادثاً مفرداً ، ولو علم الصهيونيون أنهم سيقاتلون وحدهم ما فكروا فى تعبئة ولا عدوان ، على الأقل فى الوقت الحاضر .

لقد كان كاتب هذه السطور فى مدينة لاهور بباكستان مع زملائه من أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو حين طالعنا يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر نبأ اختراق القوات الصهيونية حدود سيناء فى اليوم السابق أمام نقطة الكنتلا ، وتوغلهم بضعة عشر ميلاً فى أرض مصر ، ولما سألنى الزملاء عن رأيى ، قلت لهم : إن هذا ليس طريقاً يسلكه الجيش الصهيونى إذا كان غرضه أن يغزو أرض مصر بنفسه ، لأنه طريق فى الطرف الجنوبى من برزخ العقبة ، فلو كان الجيش الصهيونى يعمل وحده ما تجرأ على الهجوم بعيداً عن قواعده إلى هذا الحد .. وقلت : إن أكبر ما أخشاه أن يصحب الهجوم الجنوبى الإسرائيلى هجوم إنجليزى فرنسى من مكان آخر ، لعله أقرب إلى الشمال .

وبديهى أن يكون من السهل توغل القوات الصهيونية إلى عشرين أو ثلاثين كيلومتراً دون أن يلقوا مقاومة تنكر ، لأن هذه هى الخطة المرسومة للدفاع عن الحدود الشرقية ، فليس من المصلحة فى شئ أن توضع نقط قوية مزودة بالعدة الثقيلة والرجال على الحدود نفسها ، فتكون عرضة للغدر الصهيونى المفاجئ ولسهولة التجسس عليها من وراء الحدود كما حدث فى الصابحة والكنتلا من قبل . وفضلاً عن ذلك فإن كل ميل يتوغل فيه الصهيونيون يبعدهم عن

مصادر الإمداد ويزيد فى مشكلات النقل والتموين ، وهو لمصلحة الدفاع والهجوم المضاد ، وهكذا توغل الصهيونيون إلى النخل ، ثم توقفوا انتظاراً للخطوة التالية التى يعلمون أنها آتية لا ريب فيها ، والتى لن تكون من عملهم . وقد وصف متكلم صهيونى عمل قومه بأنه : " أصغر من أن يسمى عملاً حربياً وأكبر من أن يدعى عملاً انتقامياً " .

الإنذار البريطانى الفرنسى

لم تمض أربع وعشرون ساعة على الزحف الصهيونى ، حتى وقف سير أنطونى إيدن رئيس الوزراء البريطانى فى مجلس العموم فى مساء يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر يعلن أنه قد وجه إنذاراً إلى حكومتى مصر وإسرائيل ، بأن القوات البريطانية الفرنسية ستحتل " مؤقتاً " مواقع رئيسة فى كل من بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، وطلب من الحكومتين " سحب " قواتهما إلى مسافة عشرة أميال شرق القناة (بالنسبة لإسرائيل) وغرب القناة (بالنسبة لمصر) مع وقف جميع الأعمال الحربية بحراً وبراً وجواً ، ومع إنذار الحكومتين بإرسال رد على هذا الإنذار النهائى خلال اثنتى عشرة ساعة ، وإلا اضطرت الدولتان إلى استخدام القوات اللازمة لتنفيذ شروط الإنذار .

ألقى رئيس الوزارة البريطانى إعلانه هذا على برلمان اكتظ بمن فيه من الأعضاء والزائرين ؛ لأن الجميع كانوا يتوقعون إعلاناً مسرحياً كهذا ، ولعل كثيراً من الأعضاء وغير الأعضاء كان يعلم طرفاً مما يبيته العدوان : فقد نشرت جريدة التيمس برقية لمراسلها فى تل أبيب ، أرسلت يوم ٢٩ أكتوبر عندما بدأ العدوان الإسرائيلى يقول فيها : إن مصدراً صهيونياً كبيراً أكد لمراسل التيمس اللندنية أن الحكومة البريطانية أصبحت تنظر إلى سياسة إسرائيل ونياتها وخططها بعين " العطف " .

ويريد وزير بريطانيا الأول أن يقنع العالم ، بأن هذا القرار الهائل بتوجيه إنذار بالتدخل المسلح فى مصر الذى ينطوى على أخطار جسيمة للعالم كله ، والذى يحمل فى طياته جرثومة الحرب العالمية الثالثة – هذا القرار الضخم الهائل ، قد اتخذه جنابه على إثر حديث دار بينه فى صباح ذلك اليوم وبين رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها ، وفى هذه الجلسة تم الاتفاق على كل شئ ، ورسمت الخطة وحشدت القوات استعداداً ، واتخذت قرارات بالغة منتهى الخطر : كاستخدام قوات حلف الأطلنطى فى العدوان على مصر ، وتجاهل حكومة أمريكا تجاهلاً تاماً .

إن أحداً لم يزعم يوماً أن سير أنطونى ايدن رجل يمكن أن يتهم بالذكاء والفهم ! وقد وصفه أحد كبار الساسة فى بلاده بأنه a first-rate third ratter أى رجل من الطبقة الثالثة وتتمثل فيه صفاتها أحسن تمثيل ! ولكن مع التسليم بأن إيدن من ساسة الدرجة الثالثة ، فإن من الصعب أن نتصور أن يبلغ به الغباء حداً يتصور فيه أن الناس تصدق هذه الترهات التى يفوه بها ، ولم يكف عن ترديدها ، كأنه بذكائه المحدود يتوهم أن الترديد قد يلبس الزور رداء الحق !

فى هذا الإنذار العجيب تطلب بريطانيا وفرنسا من مصر أن نتراجع إلى الغرب من القناة ، وإلى إسرائيل أن تتقدم إلى الشرق من القناة ، وبديهى أن الدولتين المعتديتين كانتا تعلمان تمام العلم أن مصر لن تقبل مثل هذا الإنذار ، لأن الإنذار لم يصغ هذه الصيغة إلا لكى ترفضه مصر .

كان بوسع هاتين الدولتين أن تنذرا إسرائيل بالعودة إلى ما وراء الحدود ، وإلى مصر مثلاً بوقف الأعمال العسكرية ، حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس ، ومن الجائز أن يكون لمثل هذا العمل نتيجة إيجابية . وقد يراه بعض الناس عملاً منطقياً ، ويحاول آخرون تبريره ، لكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ،

بل كان هذا العدوان جزءاً لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ، وسنسرد فيما بعد قصة التواطؤ الثلاثى مستقاة من المصادر المحايدة .

الغزو الثلاثي

لسنا بحاجة لأن نشرح قصة الغزو الثلاثى بالتفصيل ، وحسبنا أن نورد خلاصة الأطوار الهامة لذلك الغزو فى كثير من الإيجاز إتماماً لفصول هذا البحث :

كانت الخطة المرسومة لهذا الغزو ترمى إلى أن يبدأ وينتهى ويتم كل شئ فى أثناء ثلاثة أيام أو أربعة أيام تحتل فيها مصر ، وتسقط حكومة الثورة ، وتحل محلها حكومة ترضى عنها العناصر الرجعية ، فتقبل كل شئ يطلب منها ، ولا يجرؤ أحد ، حتى الأمم المتحدة أن يعترض ، ما دامت الحكومة " الشرعية " قد تكونت وقبلت وباركت الغزو الثلاثى . ومتى تم تنفيذ الخطة على هذا النحو السريع اعترف الناس بالأمر الواقع ، ولا يكون هنالك وقت للتفكير فى حرب عالمية ، لأن الأمر انتهى بسرعة ، فلا معنى لأن تشن من أجله حرب جديدة .

سيقول العقلاء : ولكن هذه الخطة تنطوى على مغامرة ، وفى حالة الفشل قد تعود على الغزاة بالويل والثبور ، ولكن هؤلاء العقلاء لم يكونوا هم الذين يديرون شئون فرنسا وبريطانيا ، ولذلك رسمت الخطة لكى يبدأ الغزو وينتهى قبل أن تفيق مصر أو يفيق العالم ويتحرك .

وتتألف هذه الخطة من ثلاثة عناصر أساسية :

أولاً : غزو صهيونى فى جهة من سيناء يمكن التقدم فيها دون مقاومة . والغرض من هذا الغزو الصهيونى أن يجتذب القوات المحاربة المصرية كلها إلى شبه جزيرة سيناء ، تاركاً البلاد لقمة سائغة للملتهم .

ثانياً : غزو مصر من الجو بآلاف الطائرات من أحدث طراز مخصص لقوات الحلف الأطلنطى ، وتعطيل القوات الجوية المصرية ، مع ضرب الجيش المصرى من الخلف ، وهو يحاول التراجع من سيناء .

والغرض من هذا أن تكون مصر عزلاء عديمة المقاومة . أو لعلها - طبقاً لما جاءت فى النشرات الملقاة من الجو - أن تسقط الحكومة ، وتفتح أبوابها للغزاة على الرحب والسعة .

ثالثاً : تنزل القوات المعتدية على أرض ذهب جيشها إلى سيناء ، وسقطت حكومتها ، فتحت بقوات من الجو ومن البحر ، وتنزل منزلاً آمناً مطمئناً لا يزعجها شئ خصوصاً بعد أن يتم لها تحطيم محطة " إذاعة صوت العرب " .

وهذه هى العناصر الثلاثة التى تتألف منها تلك الخطة ، وأكبر الظن أنه كان مقدراً لكل خطة يوم كامل من أربعة وعشرين ساعة . وكان هذا فى نظر المعتدين وقتاً كافياً لإتمام الخطة قبل أن يفيق العالم من غشيته ، فلا يأتى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ، حتى يكون كل شئ قد تم على ما يرام ... وإذا احتاج الأمر إلى يوم آخر لم يكن فى هذا كبير بأس ، لأن أمريكا فى أسبوع الانتخابات مشغولة ، بل منهمكة فى تطاحن الأحزاب ، والأمم المتحدة " حبلها طويلة " ، أما الاتحاد السوفيتى فقد سبق للصحف البريطانية أن أكدت أن مسألة القناة لا تهم روسيا كثيراً .

هكذا حسب البريطانيون والفرنسيون حسابهم ، وأقدموا على جريمتهم التى سبق تدبيرها والاستعداد لها منذ زمن طويل . وكلنا نعرف أن قليلاً من هذا التدبير قد تحقق . ومصر تعذر إذا لم تستطع أن تتصور إقدام إنجلترا وفرنسا على اقتراف مثل هذه الحماقة ، ولذلك بادرت مصر بحشد جيشها فى سيناء ، حيث التقى هو والعدو فى

العجيلة ، فنكل بالصهيونيين أشد تنكيل وألحق بهم الهزيمة المنكرة فى طليعة شهر نوفمبر ، ولكن القيادة المصرية بادرت فأمرت الجيش المنتصر أن يتراجع إلى غرب القناة للدفاع عن مصر ، فتراجع معظمه فوراً ، لأن البلاد الآمنة تعرضت لعدوان صارخ من قوات جوية تعد وحداتها بالآلاف . وكان لا بد أن يرتد الجيش من سيناء للدفاع عن مدن مصر من جهة ، وحتى لا يتعرض للضرب من الخلف بقوات العدوان من جهة أخرى . ولا شك أن قرار التراجع كان حكيماً ، وأنه أفسد على العدو خطته ، وقد بقيته قوات تحارب لتعوق تقدم العدو الصهيونى الحقير .

وبعد أن تراجعت القوات المصرية ، وأخلت سيناء ، تقدمت القوات الصهيونية واحتلت شبه الجزيرة ، كما احتلت قطاع غزة . ثم أخذ الصهيونيون جميعاً يرقصون ويطبلون ويزمرون ، ويحسبون أنهم أحرزوا نصراً باهراً ، وصاح صائحهم أنهم لن يخرجوا من سيناء بحال من الأحوال ، أياً كانت القوات التى تحاول إخراجهم . وصفق برلمانهم طرباً لهذه الصيحات ، وأعلن أن مساحة جديدة من الأراضى تعادل ضعف مساحة فلسطين المحتلة قد ضمت بصفة نهائية قاطعة إلى الوطن الصهيونى .

وفى اليوم التالى ثاب بعض الرشاد إلى بعض العقول ، وأعلن زعيم الصهيونيين أنه سيبدأ بإخلاء سيناء فى وقت قريب .

هذا ما كان من أمر الصهيونيين . أما ما كان من أمر حلفائهم الإنجليز والفرنسيين ، فإنهم بعد أن قاموا بتخريب المدن والقرى بقدر ما وسعهم التخريب ، وأيقنوا أن " الجو " قد خلا لهم تماماً أخذوا يهاجمون منطقة القناة من ناحيتى السويس وبورسعيد .

أما من ناحية السويس ، فلا بد لنا أن نفترض أن وجود أسطول بريطانى فى مياه السويس فى تلك الآونة نفسها كان محض " صدفة " .

وأنه لم يرسل عمداً ليكون هناك وقت العدوان المدبر ! لا بد أن يكون وجود أسطول السويس من المصادفات ، لأن رئيس وزراء البريطانيين بلغ من بلادة الذهن ، ما يجعله يتوهم أن جميع الناس حظها كحظه من الذكاء !

ومهما يكن من أمر فإن الإغارة على السويس منيت بالفشل التام منذ اللحظة الأولى ، لأن البطاريات الساحلية المصرية وحدها ، كانت كفيلة بأن تلحق بالأسطول المغير هزيمة ساحقة ، رجع منها يلعق جراحه الدامية .

أما الطرف الشمالى من القناة ، فهو الميدان الخالى ، لم تخلده أعمال العدوان ونذالة الغزاة بل خلده دفاع المصريين جنداً ومتطوعين : رجالاً ونساء وأطفالاً . فقد شرع المعتدون فى اليوم الخامس من نوفمبر ينزلون بالمظلات فيتلقفهم السكان وأكثرهم ، فيردون حتفهم ، ثم تكاثر الساقطون بالمظلات ، فأفلت عدد منهم ، ولكن الغزو بالمظلات قضى عليه بالفشل ! وأدركت هذا قيادة العدو فأخذت تطلق القنابل الضخمة والنيران على المدينة العزلاء التى قضى اتفاق القناة أن تكون عزلاء ، ولذلك لم تكن لها بطاريات ساحلية ذات خطر ، فأمكن العدو أن ينزل إلى البر ، وأن يتسلل إلى المدينة .. وعلى الرغم من صدور الأمر بوقف إطلاق النار فى اليوم السابع من نوفمبر تجاهلت القوات المعتدية هذا الأمر ، وأخذت تتم احتلالها لبور فؤاد حيث نزل الفرنسيون ، وبورسعيد حيث نزل الإنجليز .

إن بورسعيد دفعت ثمن بطولتها ، والبطولة ثمنها غال فى كل وقت ومكان ، فإن نفساً طاهرة واحدة من الآلاف التى قضت فى بورسعيد تعادل ألفا من نفوس الغزاة الدنيئة . وليس المقام هنا متسعاً للإسهاب فى وصف دروس البطولة المجيدة التى ألقتها بورسعيد أمام العالم فإنها قصة تتطلب مجلداً ضخماً .

وبعد وقف إطلاق النار ، أخذت قصة الغزو الفاشل تنطوى ، ولكن فى شئ من البطء ، فقد صدر الأمر لا بوقف إطلاق النار فقط ، بل صدر الأمر أيضاً بالانسحاب فوراً ، فأخذ الأعداء المعتدون يبطئون فى تنفيذ أمر الانسحاب ، بل أخذ بعضهم يثبت أقدامه باستيراد جند آخرين وذخيرة وعدة حربية ، وزعم القائد البريطانى أن الانسحاب فى عشرين أو ثلاثين يوماً لا يتفق مع ما سماه الكرامة العسكرية .

ولذلك قرر المعتدون أن يجلسوا فى بورسعيد ويثبتوا أقدامهم ، زاعمين أنهم لا بد لهم أن يقوموا بتطهير القناة ، وأنهم قد بدءوا فى ذلك فعلاً ، فلا بد لهم أن يتموا ما بدءوا فيه ! كان هذا زعمهم ، ولكن شواهد الحال تدل على أن ما اتخذوه من إجراء لتثبيت أقدامهم فى بورسعيد كان يرمى بلا شك إلى هدف آخر ، وإلى عدوان جديد يتمكنون به من أن يوسعوا منطقة الاحتلال نحو الجنوب . لأن مركزهم وسط بحيرة المنزلة فى مساحة ضئيلة من الأرض كان مركزاً محرجاً للغاية ...

كانوا فى بقعة صغيرة من الأرض ، يحيط بها الماء من كل صوب ما عدا طريق ضيق يمتد نحو الجنوب ، ليس التقدم فيه بالأمر السهل . والقناة – إذا أرادوا اتخاذها مخرجاً نحو الجنوب – قد امتلأت بالسفن الغارقة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، وإن حاولوا الزحف فى الطريق الممتدة على طول القناة ، تعرضوا لكارثة محققة ، لأن أشبال مصر كانت رابضة على طول الطريق تتربص بهم الدوائر . فإذا أرادوا استخدام الطائرات فإن الموقع لم يكن به سوى مطار الجميل المحدود الذى لا يصلح لمثل هذا الغرض .

وهكذا كان الجلاء أمراً لا بد منه ولا مفر ، سواء أكان يتفق مع الكرامة أم لم يتفق . ولم يكن التشبث الذى شهدناه مدة أسبوعين أو ثلاثة سوى رد فعل طبيعى للشعور الممض بالفشل ، والإحساس بأن كل تلك الصيحات الأولى التى نادت بضرورة احتلال السويس

والإسماعيلية وبورسعيد قد ذهبت هباء ، وأن قادة الساسة البريطانية والفرنسية لا بد لهم أن يشربوا كأساً في مرارة العلقم والصاب .

وارتاع ايدن حين بدا أمامه شبح الفشل فاغراً فاه ، فأصابه انهيار عصبى . وسافر ليعالجه فى جزيرة جامايكا على بعد خمسة آلاف من الأميال ، تاركاً لمساعديه أن يفعلوا ما فى وسعهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وفى اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر اتخذت الأمم المتحدة قراراً مجدداً يقضى بأن يجلو المعتدون فوراً عن مصر ، ولوحت الولايات المتحدة للمعتدين باستعدادها لإمدادهم بقدر لا بأس به من النفط إذا ما بادروا بالإذعان والامتثال . فطار وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد من أمريكا ، وأعلن فى برلمانه أن حكومته ستبادر بالجلاء عن مصر ، وترجو أن يتم ذلك فى وقت قصير . وتبعه المدعو بينو وزير الخارجية الفرنسية ، فأدلى بتصريح مشابه كحذوك النعل بالنعل ! ..

ولم تحاول بريطانيا أو فرنسا التلكؤ هذه المرة ، بل بادرت القوات بالانسحاب ، وتم جلاء القوات فى مساء يوم ٢٣ ديسمبر ، بعد أن قضت فى هذا الاحتلال ثمانية وأربعين يوماً ، لم تنعم فيه قوات الاحتلال بالراحة أو يغمض لها جفن ، بل كان يؤرقها ليلاً ويزعجها نهاراً جهاد الفدائيين ، وما يصبه العالم على رؤوسهم من اللعنات ...

وتلكأت إسرائيل فى التراجع ، وجعلت القوات الدولية تقتفى أثرها ، وهى ترتد فى بطء شديد ، وتخرب وتدمر ما يصل إلى يدها ، فى أرض ليس فيها لها مجال كبير للتخريب والتدمير ، ولعل الصهيونيين كانوا يريدون أن يستفزوا مصر لكى تهاجمهم أو تخرق اتفاق وقف إطلاق النار ، ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل أيضاً .

وهكذا انتهى ذلك الغزو العظيم بجيوشه الجرار وأساطيله الضخمة ، وأسرابه الجوية التى يخطئها العد ، باء ذلك الغزو بالفشل

الهائل الذريع بعد أن اشتركت فى تدبيره دولتان تعدان فى نظر نفسيهما من الدول العظيمة ، ومعهما دويلة أخرى تسخرانها لأوطارهما . بعد أن تآمرت الثلاث فى الظلام على القيام بهذا العمل المؤكد النجاح ! ... ولهذا التآمر قصة نروى للقارئ خلاصتها :

قصة المؤامرة

تواطأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على ارتكاب ذلك الجرم البالغ منتهى الدناءة والإثم . ومع أن جميع الشواهد صارخة بوقوع هذا التواطؤ ، فإن إيدن وزملاءه فى الإجرام أخذوا ينكرون بمنتهى العنف هذه التهمة الثابتة .

وسبب إمعان الإنجليز فى إنكار هذا الأمر الواضح وضوح النهار ، أن الإغارة على مصر هى فى نفسها جريمة فظيعة تنطوى على كل خيانة وغدر ، ولكن التواطؤ مع إسرائيل وطعن مصر من الخلف ، يمثل عدة جرائم تبلغ منتهى الخسة والدناءة . لذلك كان سخط العالم شديداً على الإنجليز فى المكان الأول ، وعلى الفرنسيين فى المكان الثانى ... لما ارتكبوه من الكذب والنفاق والبهتان بادعائهم أنهم يتدخلون لوقف الحرب بين مصر والصهيونيين ، مع أنهم هم الذين شبّوا هذه الحرب ، وساعدوا على قيامها ، وفى البرلمان الإنجليزى معارضة قوية تتربص بالحكومة الدوائر . وتوجه إليها التهم ، ولذلك لم يجد إيدن وعصابته بداً من التمسك بحبل الكذب . وإن كان حبلاً واهياً ، ومن سوء حظ الإنجليز أن الفرنسيين لم يبذلوا مجهوداً كبيراً لإخفاء ذلك التواطؤ ، حتى بدرت من ساستهم عبارات توشك أن تكون اعترافاً بأن، المؤامرة قد دبرت عن عمد وسبق إصرار .

قيل للساسة الإنجليز : إن ما تزعمون من عدم التواطؤ أمر لا يقبله عقل ، فإن تدخلكم كله كان لمصلحة إسرائيل : طلبتم منها أن تتقدم إلى القرب من ضفاف القناة ، وبادرتم بالإغارة على مصر

وحدها ، وإشاعة الدمار فى مدنها وقراها ، وكانت إذاعتكم موجهة ضد حكومة مصر ، تطلبون من المصريين إسقاطها ، وإلا أنزلتم بهم الويلات . واستخدمتم فى هذا الهجوم على مصر قوات " منظمة الحلف الأطلنطى " ، ومثل هذا العمل يتطلب تفكيراً وتدبيراً ولا يكون وليد الساعة ، وظهر لكم أسطول فى مياه السويس على إثر تقديم الإنذار ، ومثل هذا لا يمكن أن يحدث بمحض الصدفة .

وعلى الرغم من هذا كله وقيام الأدلة الدامغة أصر إيدن ورهطه على إنكار تهمة التواطؤ لشناعتها وبشاعتها ، وقد نشرت مجلة " تايم " الأمريكية ، وجريدة " نيوز كرونكل " الإنجليزية وغيرهما من الصحف شرحاً وافياً لذلك التواطؤ . وكيف بدأ التفكير فى العدوان على مصر مباشرة أو الأمر ، وانتهى إلى خطة التواطؤ مع إسرائيل وطعن مصر من الخلف . ويبدو أن فرنسا كانت البادئة فى هذا الميدان ، إذ كانت تنقم على مصر تدخلها فى شئون الجزائر .

وبعد تأميم القناة بأيام قلائل سافر وزير الدفاع الفرنسى إلى لندن لرسم خطة مشتركة لاحتلال منطقة القناة وأنشئت فعلاً هيئة مشتركة لرسم الخطط والتنسيق ، وفى أثناء عقد المؤتمرات واجتماعات الساسة فى لندن – ولم يكن يقصد بها سوى التسويف – حشدت الجيوش فى قبرص ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء ، وطبعت عملة لتستخدم فى الجهات التى يتم احتلالها . وكل هذه الاستعدادات كان هدفها مصر . وفى هذه المرحلة لم يكن لإسرائيل مكان فى تلك الخطط .

وكان فى فرنسا من قبل عصابة تنادى بمحاربة مصر والعرب بواسطة إسرائيل ، وكانت الأمور تجرى بسرعة فى هذا السبيل ، ولذلك لم تلبث فرنسا أن تحولت إلى فكرة إشراك إسرائيل بعد أن قررت العدوان . ودعت فرنسا الإرهابى الصهيونى مناحم بيجن زعيم حزب هروت المتطرف ، لأن يلقى خطاباً أمام الجمعية الوطنية ، ومع

أن بيجن زعيم المعارضة فى إسرائيل . فلا شك أن الترحيب به فى البرلمان الفرنسى كان بموافقة حكومته ، ودليلاً على اتجاه حكومة إسرائيل وجهة العدوان بمعاونة فرنسا ومؤازرتها ، وبادرت فرنسا فأرسلت سراً إلى الصهيونيين ثلاثين من طائرات مستير فوق ما سبق إرساله من قبل ، ولم يتمالك بن جوريون أن أعلن فى ٢٣ سبتمبر أن إسرائيل قد وجدت أخيراً حليفاً مخلصاً .

وزعمت صحيفة تايم أن إنجلترا لم تساهم فى المرحلة الأولى من هذا التواطؤ وظلت بمعزل عنه ، ولكن الصحيفة كعادتها حسنة الظن بالبريطانيين فليس مما يقبله عقل أن تكون فرنسا منهمكة فى تدبير خطة الهجوم على مصر مع بريطانيا ثم تدخل فيها عنصراً جديداً وهو إسرائيل دون أن تخبر شريكتها سراً . والأرجح أن الإنجليز كانوا على علم تام بما جرى مدركين أنه عمل قذر ولذلك طلبوا من فرنسا أن تمضى فيه وحدها أول الأمر .

وفى يوم ١٦ أكتوبر طار إيدن ولويد إلى باريس واجتمعا هما وموليه رئيس وزراء فرنسا وبينو وزير خارجيتها . اجتمع الأربعة وحدهم ليس معهم خبير أو مشير ودام الاجتماع خمس ساعات بمنتهى السرية ، لأن الجرائم الكبرى لا يمكن أن تحاك إلا فى حالك الظلام . والظاهر أن إسرائيل كانت تحدثها نفسها بأن تشهر ما سمته حرباً " وقائية " . وقد لقيت التشجيع التام للإقدام على هذه الحرب ، ورحبت إسرائيل بالطبع ، على أن تكون تلك الحرب جزءاً من جريمة كبيرة تساهم فيها دولتان كبيرتان بمواردهما الضخمة وأساطيلهما والعدد الحديثة لمنظمة شمال الأطلنطى .

وتقول مجلة تايم : إن الإنجليز والفرنسيين أخذوا منذ ذلك التاريخ يضللون الولايات المتحدة فى كل ما يتصل بهذا الموضوع ، فلم يخبلا إيدن الأمريكيين بشىء عن الخطة التى يوشك أن ينفذها ، كما أنه لم يخبر حكومات الكمنولث ولا البرلمان . والراجح أن سلوين لويد كان

وحده الملم بتفاصيل الخطة . وقبل ارتكاب الجريمة بأيام قلائل رأى لويد هذا من المناسب أن يبلغ الولايات المتحدة أن هناك خطة جديدة لحل سلمى لمشكلة قناة السويس ، كما أعلن أن المرجح أن يجتمع المصريون والإنجليز والفرنسيون فى جنيف يوم ٢٩ أكتوبر لهذا الغرض . أى فى اليوم الذى تقرر أن يرتكب فيه العدوان !

وقد دبر المتآمرون أمرهم وأحكموا تدبيره ، واختاروا للعدوان الموعد الذى حسبوه شديد الملاءمة ، إذ كانت أمريكا منهمكة فى انتخابات الرئاسة ، ولا تجروء على عمل شئ ضد إسرائيل فتخاطر بأصوات اليهود ، وإذ كانت روسيا فى ظنهم منهمكة فى شئون المجر .

وقيل أن الإنجليز كانوا مؤمنين بأن ايزنهاور لن يفوز فى الانتخابات . ولذلك لم يعبئوا كثيراً بما قد يترتب على إخفاء إجرامهم وتواطئهم . وكان ايزنهاور فى واشنطن عندما بلغه نبأ العدوان الصهيونى على مصر . فأعلن " أن الولايات المتحدة ستفى بالتزاماتها فى الاتفاق الثلاثى المبرم عام ١٩٥٠ بأن تقف فى وجه العدوان بالاشتراك مع الزميلتين بريطانيا وفرنسا " .

ودعا مستر دالاس سفيرى إنجلترا وفرنسا عقب العدوان الإسرائيلى مباشرة لمشاورتهما فى ضرورة عقد مجلس الأمن ، فأخذا يتملصان ويلتمسان المعاذير للتسويف ، طبقاً لما لديهم من أوامر بالعمل على تأخير هذه الخطة حتى يبلغ الإنذار مصر .

ولم تلبث أمريكا أن أدركت عن طريق آخر ، أن بريطانيا حريصة على أن يستمر العدوان الإسرائيلى . ودعا سلوين لويد السفير الأمريكى فى لندن صباح الثلاثاء ٣٠ أكتوبر فى ساعة مبكرة . وطلب منه أن تحذف أمريكا من اقتراحها أمام مجلس الأمن أى وصف لإسرائيل بأنها معتدية ! ومع أن بريطانيا كانت تنوى توجيه إنذار

لمصر بعد بضع ساعات ، فإن لويد لم يشر بكلمة عن هذا الإنذار للصفير الأمريكى .

وفى ظهر يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر ، وهو الموعد الذى سبق تحديده من قبل ، وجهت بريطانيا وفرنسا الإنذار إلى مصر . وافتضح للعالم كله سر ذلك التواطؤ الدنىء الذى حاول إيدن عبثاً إنكاره ، ولما رأى أن الاتهام بالجريمة من الوضوح بحيث لا يمكن التنصل منه ، أخذ هو وأنصاره يوجهون لمصر تهماً جديدة بادية البطلان ، فلم تجد هذه من يصدقها . ولقد قيل : أن افتضاح جريمة إيدن بعد بذله كل تلك الجهود لإخفائها ، كان من أهم أسباب الانهيار العصبى الذى أصابه ...

أسباب العدوان

إن البحث عن أسباب لذلك العدوان ليس بالمطلب اليسير ، فإن التفكير فى مثل تلك الأسباب معناه أننا نتهم الذين دبروا هذا الجرم بأنهم قوم يفكرون ويعقلون ، ويزنون الأمور ، ولا يصدرون فى أعمالهم إلا عن رؤية وتدبر . مع أن جميع المجرمين المعتدين لا يدفعهم إلى جرمهم سبب حقيقى ، اللهم إلا طبع الإجرام المغروس فى نفوسهم .

ومع ذلك فإننا ما دمنا بصدد دراسة ذلك العدوان الثلاثى من جميع نواحيه فلا بد لنا أن نقف ملياً لنفكر فيما عسى أن يكون هنالك من أسباب قد يراها بعض الناس أو يذكرها على سبيل التهوين من فداحة الجريمة .

فأما الصهيونيون فقوم اشتهروا بالكذب والخداع وقول الزور . ومن العبث أن نقيم وزناً لما يقولون ، إن خلاصة مزاعمهم أنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا اتقاء لما قد تنزله بهم الدول العربية من الضربات فى المستقبل . ولذلك كثر كلامهم عن الحرب الوقائية ، مع

أن المعروف أن العدوان كان ديدنهم منذ قامت لهم قائمة ، والغدر طبعهم ، وكثيراً ما أظهروه على حدود الأردن وسوريا ومصر ...

وليس من الممكن لدولتهم أن تعيش فى أمن وهدوء ، ما داموا يرون أن البلاد التى يمثلونها يجب أن تزداد رقعتها على مضى الزمن ، وأن تستوعب مئات الآلاف من المهاجرين ، حتى تمتد أراضيهم من الفرات إلى النيل ، لذلك أنفقوا مئات الملايين فى اقتناء السلاح ، وأعدوا جيشاً من الرجال والنساء لا يقل باعترافهم عن ربع مليون من المقاتلين .

إن كل ما كان ينقص الصهيونيين ليرتكبوا ما ارتكبوه هو الفرصة . وقد أتاحتها لهم فرنسا وإنجلترا . ومع أن الفرنسيين والإنجليز يزعمون أن إسرائيل كانت ستهاجم مصر على كل حال ، فإن هذا قول هراء ، والحقيقة التى لا شك فيها هى أنه لولا الخيانة الفرنسية البريطانية ، ما تحرك الصهيونيون للدخول فى مغامرة لا بد أن تنتهى بسحقهم ومحقهم .

فمفتاح الجريمة إذن هو السياسة الفرنسية البريطانية . وإذا أردنا أن نفتش عن أسباب لذلك العدوان الفاشل ، فأولى بنا أن نبحث عنه لدى تين الدولتين . ولا بد لنا أن نذكر أن كلتا الدولتين قد خرجت من الحرب العالمية جريحة ومضعضعة ، وقد استحالت كل منهما إلى دولة من المرتبة الثانية أو الثالثة ، مع أن ذكرى أيام العظمة لم تزل عالقة بالأذهان ... وفرنسا بوجه خاص قد احتل بلادها العدو وداسها بأقدامه وأذلها ، وحاولت أن تستعيد مجدها فإذا هى تلقى الهزائم المنكرة فى بلاد الهند الصينية وتضر للانسحاب والتسليم . واضطرت فى شمالى أفريقيا لأن تصطنع اللين والمهادنة ، وللاعتراف باستقلال مراكش وتونس .

كذلك ذاق الإنجليز مرارة هزائم منكرة فى بلاد الملايو وفى شرق أفريقيا على أيدى الماو ماو ، وإلى التسليم بالجلاء عن السودان ومصر ، إلى ارتباك شديد فى أحوالهم المالية والاقتصادية ، وهم ينظرون بعين الحسد إلى ما تتمتع به ألمانيا وإيطاليا من الرخاء والثراء ، مع أنهما انهزمتا فى الحرب العالمية الثانية .

وصفوة القول أن كلا من الدولتين كانت تنوء تحت عبء ثقيل من مركب النقص ، وتتوق كل منهما إلى عمل تسترد به مكانتها فى المحيط الدولى ، بالانتصار فى حرب تحشدان لها جميع ما لديهما من عدة حربية وما تختلسانه من " منظمة شمال الأطلنطى " ، ضد خصم تتوهمان أنه ليس بذى خطر .

إن مركب النقص هذا هو الدافع القوى على هذه المغامرة ، وهو السبب الحقيقى لارتكاب ذلك الجرم الشنيع . ومع ذلك فإننا لا ننتظر من الشريكتين أن تعترفا بأن هذا هو السبب الصحيح . ولذلك نراهما تصرخان بأعلى صوت ، وتستخدمان وسائل الدعاية للترويج لما أسمتاه أسباب حملتهما على ارتكاب ما ارتكبتا من الإثم :

فأما فرنسا فزعمت أن مصر لا يحق لها أن تؤيد الثائرين فى الجزائر أو تبذل لهم أية معونة ، مهما أنزلت بهم من الويلات ، وسفكت من الدماء ، وارتكبت من الخيانات . أرادت فرنسا من العالم العربى بعامة ومن مصر بخاصة أن ينكروا عروبتهم وأن يكبتوا شعورهم ، وألا يتحركوا لما ينزل لإخوانهم من البلاء . أراد الفرنسيون من العالم كله ومن الشعوب العربية بوجه خاص ، أن تخلى بينهم وبين شعب الجزائر ، حتى يتم لها سحقه وإخضاعه .

كان بوسع فرنسا أن تلتمس وساطة مصر أو غيرها من الدول العربية للوصول إلى تسوية سلمية فى الجزائر . ولكن مركب النقص أبى عليها أن تلجأ إلى وسيلة سوى القوة والقهر . فلما رأت أن هذه

الوسيلة لا تنيلها مأرباً ، ولا تدنيها من الانتصار على المجاهدين في الجزائر . أخذت تشكو من تدخل الحكومات العربية ومن حكومة مصر بوجه خاص ، وأخذت مراجل غيظها تغلي ، وتزداد مع الأيام غلياناً .

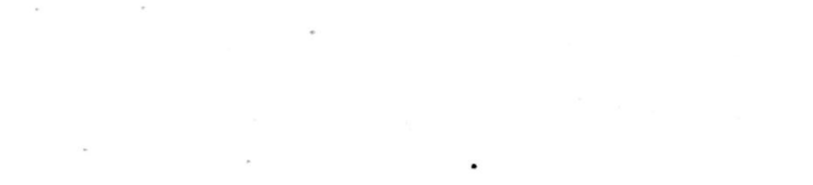
أما إنجلترا فكانت تنقم على مصر أنها ناهضت المصالح الاستعمارية البريطانية ، سواء في شرق أفريقيا أو الشرق الأوسط . فأما في شرقي أفريقيا فإن مصر أبدت عطفها على حركة الماو ماو ، ونظمت إذاعة باللغة السواحلية لإثارة الهياج في سكان تلك الأقاليم . ولم تكن مصر وحدها التي تعطف على الماو ماو ، وليس مما يقبله العقل أن مجرد عبارات واردة في إذاعة ، تدفع شعوباً تبعد عنا آلاف الأميال إلى الثورة والهياج ، وكان الأجدر بالبريطانيين أن يسلموا بالحقيقة التي لا مفر منها ، وهي أن الاستعمار مشرف على الزوال ، وأن المسمار الذي تدقه مصر في نعشه ليس إلا واحداً من آلاف المسامير .

ولعل أكبر ما آثار الضغينة والحقد على مصر في نفس الإنجليز ، هو نجاح السياسة العربية التي تتبعها مصر ، وفشل سياسة حلف بغداد التي بذلت بريطانيا أقصى جهودها لنصرته وتأييده ، لقد كان حلف بغداد عملاً استعمارياً مكشوفاً . وأولادنا في المدارس ، بل رجال الشارع يدركون أن هذا المشروع لا يرمي إلا لإقامة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط . والصحف البريطانية لا تنكر ذلك ، وكثيراً ما تتحدث بأن الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية ، وقد خرج هذا النفوذ من الباب فلا بد له أن يعود من النافذة : نافذة حلف بغداد .

وأراد الإنجليز أن يكرهوا حكومة الأردن وسوريا ولبنان على الانضمام إلى ذلك المشروع الاستعماري . ثم أدهشهم أن هذه الأقطار ، حكوماتها وشعوبها ، لديها من الإدراك والفهم ما مكنها من رفض ذلك المشروع ورد دعاته على أعقابهم ، كأن كل العالم يجب أن يكونوا في مثل غباوة ايدن وعصابة ايدن . ولم يكن بد من أن تلتمس حكومة

الإنجليز سبباً لفشلها هذا ، فلم تجد سوى مصر تتهمها بأنها هى إلى أفسدت حلف بغداد ، وكشفت عن مخازيه النقاب ، مع أن مخازيه بادية للعيان ، يراها كل إنسان فى مشارق الأرض والمغارب .

أما مشكلة القناة فأوهى من تلك الأسباب جميعاً ، وقد كانت القناة فى أحسن حال تؤدى وظيفتها على أحسن وجه ، حتى عطلها العدوان الغاشم .



الفصل الرابع

الاستعمار المعاصر

أشرت إلى أن مقاعد الدول الاستعمارية لم تثبت على حال وإنما كانت فى حالة تبديل وتغيير بين الحين والآخر ، وقد ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية دول أكثر تكالباً على الاستحواذ والسيطرة وأشد شراسة فى تعاملها مع القوى العالمية الأخرى وأكثر إسرافاً فى نظرتها العنصرية ، فقد ولدت دولتان كبيرتان هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى الذى دعم موقعه ومكانته بع الحرب متبنياً الأيديولوجية الشيوعية بعد أن نجح فى ضم الكثير من الأقطار الإسلامية – فى وسط آسيا – وعمل على تحويلها إلى الشيوعية ليس كمذهب اقتصادى وإنما كعقيدة وتوجه يعمل على صرف الناس عن عقائد السماء .

وفى مرحلة ما أطلق عليه الحرب الباردة بين المعسكرين ذهب كل بلد من هاتين البلدتين كل مذهب فى سبيل السيطرة والاستحواذ ونشر أفكاره وتوجهاته وضم الدول إليه أو جرها إلى التحالف معه .

والناظر إلى خريطة العالم فى خمسينيات القرن العشرين يجد أن هناك معسكرين أحدهما المعسكر الغربى وعماده الولايات المتحدة الأمريكية ومجموعة من الدول تدور فى فلكه وتنفذ سياسته وتبارى كل فريق من الفريقين فى إبراز عيوب الآخر أمام الشعوب والدول والحكومات فى محاولة لجذب أكبر قدر ممكن منها إلى معسكره حتى صار العالم فعلاً يقترب من الانقسام إلى كتلتين (طوعاً أو كرهاً) .

وقد نجحت القوى الاستعمارية – الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وحلفائهما – فى نقل ساحات الصراع إلى أراض بعيدة عن حدودهما ولا تكاد توجد حرب فى منطقة ما مثل –فيتنام – أو – الشرق

الأوسط - إلا وكان المخطط الرئيسى لها والممول العسكرى لها والعامل النشيط فى استمرارها إحدى الدولتين العظميين فكان الصراع فى حقيقته صراعاً بينهما بأيدى الشعوب المغلوبة على أمرها ، وكان سلاحها مدفوع الثمن من جيوب شعوب تقف عند حد الفقر ، وكانت فرصة لتلك الدول الاستعمارية لتجرب كفاءة أسلحتها ، وكانت فرصة أخرى لتصدر المخزون من أسلحتها التى أصبحت غير ذى بال .

وبعد أن كان الاستعمار - سابقاً - يقوم على الغزو العسكرى أو الضم بالقوة أضحى فى الآونة المعاصرة يعمل على التغلغل بصور مستترة إلى داخل الدول عن طريق نشر الأفكار أو عقد المحالفات وإقامة التكتلات ، وقد شهد العالم تكتلين عسكريين كبيرين أحدهما حلف وارسو الذى يرعاه الاتحاد السوفيتي - قبل تحلله - ويضم مجموعة من الدول الأوربية الشرقية التى رأى الاتحاد السوفيتى أنها خط دفاعه الأول ضد أفكار الغرب وتوجهاته الاقتصادية والسياسية ، والآخر حلف الأطلنطى وتقوم على رعايته الولايات المتحدة الأمريكية وتتدرج فى عضويته دول أوربا الغربية التى تدور فى الفلك الأمريكى والتى يرى الأمريكيون أنها تشكل خط دفاعهم الأول ضد أفكار وسياسة الاتحاد السوفيتى .

وفى هذه الفترة عمل كل من الحلفين على محاولة ضم الدول الأخرى إليه أو على الأقل الوقوف والحيلولة دون انضمامها للحلف الآخر وأضحى جلياً أن اقتراب دولة ما فى سياستها من المعسكر الشرقى يعنى إعلان العداء للمعسكر الغربى والعكس صحيح ، وقد حاولت بعض بقايا الإمبراطوريات السابقة وخاصة بريطانيا وفرنسا أن تبحثا لنفسيهما عن دور عالمى فشكلت بعض التكتلات التى تعد غير ذات بال أو تأثير فى المعترك الدولى ومنها قيام بريطانيا بضم مجموعة من الدول التى أعلنت استقلالها ونفضت عن نفسها غبار الاستعمار

الإنجليزى تحت مسمى مجموعة الكمنولث ولكن قدرات هذا التجمع كانت محدودة وغير مؤثرة .

كما عملت فرنسا على الارتباط بمجموعة الدول التى أطلق عليها - الناطقة بالفرنسية - وسمى ذلك التجمع مجموعة الدول الفرانكفونية ولم يكن أسعد حظاً من صنوه البريطانى وإنما كان التجمعان غير مؤثران بالصورة الواضحة أو البينة واقتصر أمر تجمع الكمنولث على بعض الروابط الاقتصادية بينما اقتصر التجمع الذى ترعاه فرنسا على الأهداف الثقافية والتنصيرية .

وبين هذه القوى العالمية حاولت جماعة من الدول الحديثة الاستقلال أن تبحث لها عن دور عالمى فتأسست جماعة عدم الانحياز وضمت عند تأسيسها مجموعة قليلة من الدول من أهمها مصر والهند ويوغسلافيا - التى تحللت الآن وأصبحت عدة دول قامت على أساس عرقى ودينى - وإندونيسيا ، ولم يستطع ذلك التجمع أن يحقق الغرض المرجو منه وإنما فشل فى الإبقاء على مبادئه حية داخل الدول المؤسسة فأخذ بعض الدول يتجه شرقاً والآخر يتجه غرباً وسارت كل دولة حسب ما تعتقد أنه المصلحة أو الأمن القومى ، وعلى الرغم من انضمام عدد ضخم من دول العالم الباحثة عن الحرية والتحرر والطامعة فى عدم التبعية إلى دول عدم الانحياز إلا أن تأثير هذا التجمع كان محدوداً للغاية على المستويين المحلى والدولى .

فقد كانت مصر إحدى الدول المؤسسة لمجموعة عدم الانحياز ولكنها أمام هزيمة ١٩٦٧ على يد القوات الإسرائيلية اضطرت إلى خرق القواعد التى قامت على أساسها جماعة عدم الانحياز وبات التوجه المصرى نحو الاتحاد السوفيتى واضحاً جلياً ، ويمكن أن نقيس على وضع مصر أوضاع كثير من دول عدم الانحياز التى لم يبق لها من عضوية هذه الجماعة إلا حمل بطاقة العضوية وأخذت المبادئ التى قام عليها ذلك التكتل تتبدد وتذهب سدى .

وهناك تجمع آخر أكثر محلية وهو منظمة الوحدة الأفريقية والتى تضم معظم بلدان القارة الأفريقية وهو تجمع أضعف من الصمود أمام مشاكل القارة – وهى كثيرة ومتشعبة – وأمام التغلغل الاستعمارى الذى خرج من الأبواب ليعود بوجه آخر من النوافذ ويعمل على تقويض وإضعاف أى تكتل يحدث يقظة أو يقيم معوجاً أو يلفت الانتباه إلى ألاعيب الاستعمار .

وهناك تجمعاً أقيم على أساس دينى عقدى هو منظمة المؤتمر الإسلامى والتى تضم بعض الدول الإسلامية – وهم كثير – ولكن دورها السياسى لم يزل قاصراً أو محجماً فى اتخاذ بعض القرارات التى تدين أو تشجب احتلالاً ولا تملك المنظمة القوة التى تمكنها من القيام بدورها المرجو والمنشود .

وقد ولدت وتولد فى الآونة الأخيرة مجموعة من التكتلات التى تتجه نحو الأهداف الاقتصادية كالوحدة النقدية الأوربية ، أو البحث عن تكتل عربى اقتصادى أو اتحادات إقليمية فى داخل القارات كالاتحاد المغاربى فى أفريقيا ، والوحدة ذات الأهداف الاقتصادية فى جنوب شرق آسيا ومجلس التعاون لدول الخليج العربى ، وفيما عدا الاتحاد الأوربى نجد أن الاتحادات الأخرى تسير بطيئاً بصورة لا تجدى مع هجمة شرسة ومنظمة يخطط لها الاستعمار الحديث .

ونستطيع أن نرصد خطوات الاستعمار المعاصر فى التوجهات الآتية :

<u>أولاً :</u> المحافظة على الوضع الدولى الراهن للأمم المتحدة بنظامها العنصرى القائم على معايير القوة ، والذى يعتمد رسمياً على عدم المساواة بين الشعوب ، فمثلاً فى ملس الأمن الدولى تجلس خمسة دول [أمريكا – فرنسا – بريطانيا – روسيا (وريثة الاتحاد السوفيتى) – الصين] وتتمتع بحق النقض VITO الذى يمكن أى دولة من هذه

الدول من إجهاض أى قرار لا يتناسب مع مصالحها وتستطيع حسب النظام الحالى دولة واحدة - كالولايات المتحدة - أن توقف صدور أى قرار حتى ولو أجمعت عليه الدول الأخرى - وكثيراً ما حدث ويحدث ذلك .

وبقاء الأمم المتحدة على تلك الصورة يزيد من فشلها فى حل النزاعات الدولية ويقوى قبة الدول التى تقبض على أزمة الأمور فى العالم ، كما أنه حتى وإن صدر قرار بإجماع من مجلس الأمن فإن حالة الترهل التى تعيشها الأمم يجعل بعض الدول الصغيرة تضرب بتلك القرارات عرض الحائط دون أن يمسسها أى أذى أو تتأثر وضعيتها الدولية أو مكانتها بين الأمم ، ولم نجد تدخلاً قوياً من الأمم المتحدة وبصورة عسكرية ملزمة إلا فى حالات محدودة جداً لم تخل من هوى استعمارى أو أهداف غير شريفة .

ويحرص الاستعمار المعاصر على الإبقاء على ذلك الوضع المرتبك للمنظمة الدولية ويحاول أن يحصر اهتمامها فى المطالبة بما لها من ديون عند الدول الأعضاء (وتجدر الإشارة هنا إلى أن أغنى دول العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية هى أكبر دولة مدينة للأمم المتحدة وتلك مفارقة غريبة) . أو عقد مؤتمر لبحث حقوق الطفل ، أو تلوث البيئة ، وحتى هذه المستويات المتدنية من الخدمات فشلت الأمم المتحدة فى إصدار قرارات ملزمة بشأنها .

<u>ثانياً :</u> العمل على إجهاض كل محاولة لإيجاد قوة حرة أو نزيهة بين دول العالم يمكن أن تقيم معوجاً أو تحقق إصلاحاً فضلاً عن أن فشل المنظمة الدولية بكامل هيئاتها وبتاريخها الطويل أوجد نوعاً من الإحباط المبكر عند من يفكرون فى أمر اعتدال أحوال العالم عن طريق تنظيم دولى أو تأسيس تجمع نزيه بعيد عن الأغراض الشخصية أو الفردية ، وقد نجحت القوى الاستعمارية - إلى حد كبير - فى القضاء على أى دور بارز للمنظمات الإقليمية - وكما رأينا - اقتصرت معظم

قرارات وجهود تلك المنظمات فى المشاكل الداخلية والنزاعات الإقليمية وأضحى دورها باهتاً فى تأثيره على المستوى الدولى .

ثالثاً : إثارة الفتن الداخلية وتوجيه الشعوب والحكومات نحو تلك المشاكل التى تستوعب جهدها ووقتها ومالها فلا تجد متسعاً من الوقت للبحث فى إعادة النظام الدولى على أسس سليمة عادلة وحرة ، وكلما لاح فى الأفق أن دولة ما أو مجموعة من الدول تحاول أو تقترب من قضية الوضع الدولى أطلت ألسنة الفتن الداخلية وتبدد جهدها لتبدأ بعد حين من الزمن ، وكأن الدول الاستعمارية تحرص أن تحصر أى دولة أو مجموعة دول فى مشاكلها تفجرها عمدا فى داخلها حتى لا تجد متسعاً من الوقت يسمح لها بمعالجة الأوضاع الدولية الراهنة .

رابعاً : زرع بؤر استعمارية لإيجاد نوع من عدم الاستقرار فى بعض المناطق التى يتوقع لها القيام بنشاط لا يناسب أو لا يتفق مع المصالح الاستعمارية ، وتعمل بؤر الاستعمار - أفراداً وجماعات ودولاً - بنشاط منقطع النظير لتقوية عوامل القلق التى تحول دون تقدم الدول المحيطة بها حتى تقضى على أى أمل فى النهوض أو الحصول على موقعها الطبيعى على خريطة العالم - ودور إسرائيل [٦] فى منطقة الشرق العربى بل وفى العالم العربى كله وفى خارجه أحياناً - واضح فى إيجاد نوع من عدم الاستقرار فهى كما نرى تعمل جاهدة على خلق العديد من المشاكل التى تجاوزت حدود مشكلتها مع الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم وديارهم وأصبحت مشكلة تهدد المنطقة العربية كاملة ، بل وتتعداها إلى باكستان الإسلامية ، وإيران الإسلامية ، وتجد من الذين يدورون فى فلك الاستعمار - كتركيا حالياً - عوناً جاداً للاضطلاع بدور بارز فى المنطقة .

---

(٦) تسمى الدولة الصهيونية نفسها إسرائيل ، وإسرائيل عليه السلام منها براء .

خامساً : **التغلغل إلى المجتمعات (حكومات وشعوباً) عن طريق** وسائل مختلفة مثل المعونات الاقتصادية [٧] التى تتم مراجعتها بين الحين والحين وتقرر فى ضوء حالة كل دولة وملاءمة سياستها للمصالح الاستعمارية فإذا ما تبين أن دولة ما تحاول أن تكون مستقلة فى قرارها أو اصطدمت بعض قراراتها بما يسميه المستعمرون مصالحهم فإن سلاح التهديد بقطع المعونات يكون أو الأسلحة التى تستخدم ضد تلك الدولة .

لذا فإن نعد تلك المعونات عملاً مغرضاً يفترض المستعمرون أنهم عن طريقه يمكن أن يخضعوا دولاً وشعوباً لمصالحهم ويجعلونها أدوات تدور فى فلكهم ، فيتلاشى تبعاً لذلك دور تلك الدول على المستويين الإقليمى والدولى .

ومن طرق التغلغل المنتشرة الآن الإعلام المرئى والمسموع والمقروء فى عالم قصرت فيه المسافات واتسعت فيه مساحات الإعلام بصورة تغطى معظم الأرض وأبواق الإعلام تعمل على نشر أفكار يبدو فى ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب والدمار فتقدم الأفكار والنظريات وتتحدث عن التسامح حيث يجب الحديث عن الجهاد وتفرغ مضمون الشخصية المتلقية من المبادئ فتجعل الناس دمى يتحركون دون مبدأ أو هدف أو غاية وتعرض وتفرض الكثير من السلوكيات الهدامة التى تبعد المتلقى عن قضايا وطنه ومبادئ عقيدته وأحياناً تشغل المثقفين وبعض المفكرين فى أطروحات جانبية هامشية تنأى بهم عن التفكير الجاد والمنظم فى مشاكلهم الحقيقى أو البحث فى أمور يمكن أن تنهض بهم أو تحسن من أوضاعهم .

---

(٧) تقدم بعض هذه المعونات على صورة مشورات لا تخدم أهداف الدول بقدر ما تخدم أهداف المستعمر كما تقدم أيضاً على صورة منح تعليمية يدور معظمها فى خدمة خطط التنمية للدولة المانحة ، كما تقدم فى صورة مساعدات قد تكون مرفوضة لدى كثير من شعوب الدول الممنوحة .

سادساً : جذب المفكرين المبرزين وإبعادهم - بالاغراءات المالية حيناً والضغوط الأخرى أحياناً - عن أوطانهم حتى لا تستفيد تلك البلدان المتنامية من جهود أولئك المفكرين والعلماء ، وتتركز قواعد البيانات والمعلومات والاكتشافات واختراعات لدى الدول الاستعمارية وتحرم البلدان الضعيفة من سواعد أبنائها وأفكارهم وتتوقف عجلة التطور فيها ، ولا يتم إلا جانب محدود من التطور فى بعض الميادين الهامشية التى لا ترقى بالبلدان ولا تؤثر إيجاباً على أحوالها ، وتقوم الدول الراغبة فى التطوير باستيراد ما تسمح به الدول الاستعمارية - وليس ما تحتاج إليه خطط التنمية - فيأتى ذلك التطوير محدوداً من ناحية وموجهاً من ناحية أخرى .

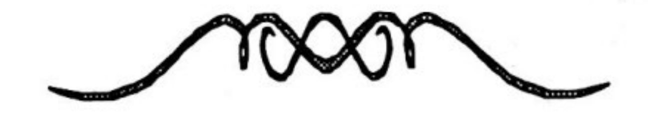
سابعاً : جذب رؤوس الأموال وتركيزها فى بعض البلدان الاستعمارية ليكون أول عائد لها إنعاش المجتمعات الاستعمارية ثم تستخدم تلك الأموال أداة ضغط وتأثير حين التهديد بمصادرتها إذا ما أخذت الطابع المستقل أو إذا لم توافق طواعية على السير فى فلك سياسات الدول الاستعمارية .

وجذب رؤوس الأموال يزيد من فقر الدول الصغيرة والضعيفة وبؤس شعوبها ويجعل تلك الأموال ورقة رابحة يمكن أن تستخدم وتعود بالربح الوفير جداً على الدول الاستعمارية وقد تقدم الدول الكبرى من المعونات لإحدى الدول النامية بمقدار لا يصل إلى جزء من عائدات رؤوس الأموال المملوكة لأفراد تابعين لتلك الدولة الممنوحة .

وتنعدم بذلك وسائل الرقى والتقدم فى الدول الفقيرة فتظل متعثرة غير قادرة على إدارة أمورها وتضعف ميزانيتها فإذا ما أبتليت ببعض المشاكل الذى يزرعها المستعمرون - كالحروب الإقليمية والصراعات الطائفية ... الخ - فإنها تلجأ أمام ضعفها الاقتصادى إلى الاستدانة ، وهنا تبرز الطامة الكبرى التى تؤدى بالدول - ومن وراءها الشعوب -

إلى الخضوع لشروط الدائنيـن التـى كثيراً مـا تشـكل تدخـلاً سـافراً فـى الشئون الداخلية .

وبعد ، فهذه صور من وسائل المستعمر فى التـاريخ المعـاصر وحقيقة الأمر أن تلـك الوسـائل كثيرة ومتنوعـة ومتطـورة ولهـا صـور مختلفـة وأشـكال متباينـة تكيـف حسـبما يخـدم المصـالح الاسـتعمارية من ناحيـة وتبـدو فـى صـورة فـائدة مقدمـة مـن الـدول المانحـة مـن ناحية أخرى .



أثر الاستعمار ونتائجه

لقد أدى الاستعمار بصوره وأشكاله المختلفة التى ذكرناها إلى وضع شاذ يعيشه العالم اليوم وأبسط ما يمكن أن يلاحظه الناظر أن العالم قد انقسم إلى قسمين مالك ومملوك فالمالكون هم الدول الاستعمارية المسيطرة على مجريات الأمور فى العالم سياسية كانت أو اقتصادية فضلاً عن أنهم قد وفروا لشعوبهم - على حساب قوت الشعوب الأخرى - مستويات اقتصادية معقولة ونوعاً من الديموقراطية فأصبحت شعوبهم أوفر حظاً وأكثر حرصاً على الإبقاء على الوضع الراهن .

أما المملوكون فهم بقية شعوب ودول العالم الذين باتوا مغلوبين على أمرهم مرتبطة أحوالهم بقرارات وسياسات وخطط الدول الاستعمارية ، وهنا تجد المجاعات والأوبئة وانتشار الأمراض وسمات التخلف التى لا يستطيعون منها فكاكاً ولا يجدون سبيلاً سريعاً للخروج منها .

والمالكون فئة صغيرة من سكان أرض الله والمملوكون أقطار واسعة فسيحة وشعوب كبيرة العدد متنوعة الأجناس .

ومهما حاول البعض التخفيف من ذلك الوضع المأساوى الراهن فإن تلك الصورة تظل ماثلة أمام الأذهان بشكلها القبيح وبوضعها السيئ .

لقد أصبح النظام - أو عدم النظام - العالمى فى القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين يجسد الصورة التى ذكرناها عن تقسيم العالم ، وأضحى التخلف سمة بارزة يحاول الضعفاء الإفلات منها ويحاول المستعمرون الإبقاء عليها وتجسيدها .

والنتائج المترتبة على استشراء ظاهرة الاستعمار كثيرة ومرة تعيشها شعوب الدول الضعيفة فى صورتها السلبية وتنعم بها شعوب الدول الاستعمارية فى صورتها الإيجابية .

فنمو الدول الاستعمارية وزيادة قدراتها الاقتصادية والعسكرية يتبعها مباشرة تخلف مزمن فى الدول الضعيفة وتعثر دائم لمشروعاتها وتأخر مستمر عن ركب الحضارة والتطور والتقدم .

والجدول الملحق يصور لنا البون الشاسع بين دخول الأفراد فى دول استعمارية مقارنا بدخول الأفراد السنوية فى دول خضعت للاستعمار بصورة أو بأخرى .

جدول يبين الفجوة بين مستوى دخول الأفراد فى العالم (٨)

الدولة	متوسط دخل الفرد السنوى (بالدولار الأمريكى)
كندا	٢٢٤٧
الولايات المتحدة الأمريكية	٣٥٧٨
فرنسا	١٧٣٨ (١٩٦٧ م)
المملكة المتحدة (بريطانيا)	١٥٦٠ (١٩٦٧ م)
أفريقيا	١٤٠ (١٩٦٥ م)
الكونغو	٥٢
غانا	١٩٨
كينيا	١٠٧
مالاوى	٥٢
مراكش	١٨٥
جنوب أفريقيا	٥٤٣
تنزانيا	٦٢
جمهورية مصر العربية	١٥٦

(٨) استحدث معلوماته من الاحصائيات المطبوعة الصادرة عن الأمم المتحدة .

ويمكن أن نقيس على ذلك المستوى البين من التخلف أنصبة الأفراد فى الدول التى خضعت للاستعمار من التعليم والرعاية الصحية بل يصل الأمر إلى نصيب الفرد من الهواء غير الملوث والفكر غير الموجه .

ومن النتائج المترتبة على الاستعمار إسهام الدول الخاضعة للاستعمار فى تنمية الدول المستعمرة أى من عائدات الدول الخاضعة للاستعمار تذهب - أو جزء كبير منها - إلى جيوب المستعمرين فتسهم الأولى فى إسعاد شعوب الثانية بينما تحرص الثانية على تخلف الأولى وتحرص على جعلها -كالبقرة الحلوب أو المزرعة الخاصة - خاضعة للضوابط التى تزيد من قبضة المستعمر وتساعد على تحكمه بصورة أكبر .

والناظر إلى حال الدول المستعمرة يدرك عدة أطوار مرت بها فقد اختطف الآلاف من الأفارقة ونقلوا إلى بلدان أخرى فى أوربا وأمريكا الأمر الذى حرم الدول الأفريقية من طاقة بشرية لازمة للنمو وغذى روافد الحياة فى الدول الاستعمارية بسواعد قامت على أكتافها أساسات النهضة التى نراها الآن .

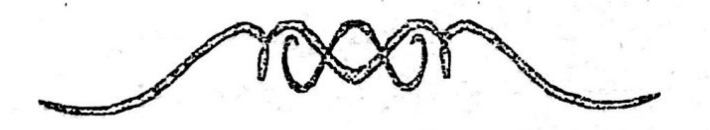
ثم قام المستعمرين باستلاب الثروات الطبيعية من تلك البلدان فحرموا البلاد من خيرات أراضيها ونقلت إلى البلدان المستعمرة فاستغلت بصورة منظمة أدى هذا إلى عوامل التخلف لدى الدول الأفريقية وساعد بصورة واضحة على النمو فى الدول الاستعمارية .

وهكذا كانت تجارة الرقيق (٩) والاستيلاء على المواد الخام من عوامل التخلف للدول الأفريقية وعوامل النمو فى الدول المستعمرة .

وقد أضحى الاستعمار بصوره المختلفة ضرورياً لاقتصاديات البلدان الاستعمارية فبداية كانت الحاجة إلى الأيدى العاملة والمواد الخام ونهاية كانت الحاجة إلى أسواق لتصريف المنتجات الصناعية فأصبحت السيطرة على الدول وسيلة رئيسية من وسائل المستعمرين للمحافظة على تسيدهم الاقتصادى على العالم .

والوضع السيئ الذى تعيشه الدول الفقيرة وما تعانيه من تخلف وما يحيط بها من أمراء وما يلاحقها من مجاعات وما يكتنفها من مستقبل مجهول كل ذلك كان نتيجة حتمية لحركة الاستنزاف التى تعرضت لها تلك الدول ثم كان نتيجة حتمية للسياسة الاستعمارية القائمة على الإبقاء على التخلف وزيادة حدته فى الدول التى خضعت أو تخضع للاستعمار .

تلك بعض النتائج المترتبة على الاستعمار منذ ظهوره وحتى الآن .



(٩) تجدر الإشارة هنا إلى أن الرقيق الأفريقى بعد أن أدى دوراً رئيسياً فى تنمية المجتمعات الاستعمارية أعيد البعض إلى أفريقيا وأقيمت لاستيعاب هؤلاء دولة سيراليون والتىأعيد إليها الآلاف من أمريكا وبريطانيا بعد أن اعتصرت سواعدهم وأدوا دورهم فى إسعاد الآخرين فعادوا يملكون الفتات بعد أن اكتظت جيوب المستعمرين بالملاين من الأرباح الطائلة التى حققوها .

الملحق رقم (أ)

معاهدة غرناطة مثال صارخ على السلوك الاستعمارى

فى الدور الأول من الحروب الإيطالية حدث نزاع بين ملك فرنسا (لويس الثانى عشر ١٤٩٨: ١٥١٥) وملك أسبانيا (فرديناند الكاثوليكى ١٤٦٩ : ١٥١٥) حيث طمع كلاً منهما فى ضم نابولى إلى أملاكه وأخيراً التقت مصالح الملكين فعقدت بينهما معاهدة غرناطة فى نوفمبر سنة ١٥٠٠ وكانت تحت رعاية البابا (اسكندر السادس ١٤٩٢ : ١٥٠٣) وقد اتفق الجانبان – ملك فرنسا وملك أسبانيا – على إرسال حملة عسكرية مشتركة لغزو مملكة نابولى واقتسامها حيث يكون لفرنسا إقليمين إضافة إلى مدينة نابولى وأن تستولى أسبانيا على إقليمين ، كما اتفقا على أن يتخذ ملك فرنسا لنفسه لقب ملك نابولى ، بينما يتخذ فرديناند ملك أسبانيا لنفسه لقب الدوق الكبير .

وتعد تلك الاتفاقية المبرمة بين بلدين كبيرين وبرعاية بابا روما الذى يتمتع بمكانة متميزة لدى معظم نصارى العالم مثالاً صارخاً على عدوان الدول الكبرى والقوى العظمى على الكيانات والممالك الصغيرة حيث اتفقت دولتان من أكبر الدول الأوربية فى ذلك الوقت على الاعتداء على دولة صغرى وإزالتها من الوجود .

وكانت مملكة نابولى آنذاك مملكة لا تثير متاعب للغير ولا تملك وسائل الدفاع عنه نفسها " Unoffending and defenceless State " (١٠) .

---

(١٠) لمزيد من التفاصيل حول تلك المعاهدة والحروب الإيطالية عموما ، يمكن الرجوع إلى :
د. عبد العزيز محمد الشناوى – أوربا فى مطلع العصور الحديثة – جـ ١ ص ١٦٦ ط دار المعارف ١٩٦٩ – مصر .

ولم يعدم الملكان الوسيلة لتقديم المبررات على عملهما المشين وقيامهما بتقطيع أوصال مملكة لم تسئ إليهما وقد ادعى الملكان أن نابولى كانت على علاقة ودية بالدولة العثمانية وكانت الدول الأوربية تنظر إليها على أنها أكبر خطر إسلامى يتهدد أوربا المسيحية ، ولو كان هذا الادعاء صحيحاً لوجهت أسبانيا وفرنسا جيوشهما نحو الدولة العثمانية – مكمن الخطر – بصورة مباشرة .

ومهما يكن من أمر فإن عقد تلك المعاهدة يكشف لنا عن أن الدول الاستعمارية يمكنها الإقدام على أى عمل لتحقيق أهدافها وسوف لا تعدم الوسيلة فى إيجاد مبرر تسوقه كما تكشف رعاية الباب لعقد المعاهدة عن سوء حالة رجال الدين فى أوربا فى تلك الآونة الأمر الذى مهد لظهور ما يعرف بحركات الإصلاح الدينى .



الملحق رقم (٢)

الاتفاقية الإنجليزية - الفرنسية - الروسية

ابريل – مايو ١٩١٦م

المعروفة

باتفاقية سايكس - بيكو

لقد تم عقد اتفاقية سايكس – بيكو على شكل مذكرات دبلوماسية تبادلتها حكومات الدول الثلاث واعترفت فيها كل دولتين بحق الدولة الثالثة فى أجزاء من الدولة العثمانية بعد تجزئتها .

وقد جرى تبادل المذكرات التى تحدد الحصة الدبلوماسية فى ٢٦ إبريل ١٩١٦م بين وزير خارجية روسيا والسفير الفرنسى فى وروسيا وبعد أسابيع قليلة فى لندن بين السفير الروسى فى لندن ووزير الخارجية البريطانى إدوارد جراى .

كما تبودلت المذكرات الخاصة بالحصتين البريطانية والفرنسية فى لندن فى ١٩ مايو ١٩١٦ .

نص الاتفاقية المعقودة في لندن

١٦ مايو ١٩١٦ م

المادة الأولى : إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) داخلية سوريا و (ب) داخلية العراق المبينة فى الخريطة الملحقة بهذا يكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولإنجلترا فى منطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات

والقروض المحلية وتتفرد فرنسا فى منطقة (أ) وإنجلترا فى منطقى (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية : يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (سواحل سوريا) ولإنجلترا فى المنطقة الحمراء (العراق من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة : تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة .

المادة الرابعة : تنال إنجلترا ما يأتى :

أ – ميناء حيفا وعكا .

ب – يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات فى المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك (ملك بريطانيا) من جهتها بأن لا تدخل فى مفاوضات ما مع حكومة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً .

المادة الخامسة : تكون اسكندرونة ميناءاً حراً لتجارة الإمبراطورية البريطانية ولا تنشأ معاملات مختلفة فى رسوم الميناء ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد فى المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) ، (ب) أو صادرة منهما ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أى سكة من سكك الحديد أو فى

ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية .

وتكون حيفا ميناءاً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف فى المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنجليزية المنطقة السمراء سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها ولا يجرى أدنى اختلاف فى المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسية فى أى سكة من سكك الحديد ولا فى ميناء من الموانئ فى المناطق المذكورة .

<u>المادة السادسة :</u> لا تمد سكة حديد فى بغداد فى المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا فى المنطقة (ب) إلى ما بعد سامر شمالاً إلى أن يتم إنشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب ماراً بوادى الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين .

<u>المادة السابعة :</u> يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة (ب) ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط ، ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذراً فالحكومة الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره فى طريق بربوره - أم قيس - ملقى - ايدار - غسطا - مغاير . قبل أن يصل إلى المنطقة (ب) .

المادة الثامنة : تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) ، (ب) فلا تضاف أى علاوة على الرسوم ولا تستبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين .

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه وما يفرض من رسوم الجمارك على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع فى الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع .

المادة التاسعة : من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجرى مفاوضة فى أى وقت كان للتنازل عن حقوقها ولا تعطى مالها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك البريطانية التى تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

المادة العاشرة : تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسية بصفتيهما حاميتين للدولة العربية على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطاراً فى شبه جزيرة العرب أو تنشئ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى على أن هذا لا يمنع تصحيحاً فى حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير .

المادة الحادية عشرة : تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية .

المادة الثانية عشرة : من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية .

فهرس